

دراسة

# لغة التدريس وخذعة إصلاح التعليم

إحياء  
lhyae



محمد زاوي

07 أكتوبر 2019

جميع الحقوق محفوظة © 2019

## مواضيع الدراسة:

التعليم قضية وطنية / طبقية

اللغة والطبقات والوطن (نقاش نظري)

من المسؤول عن تخلف اللغة العربية؟

نضالات الحركة الوطنية ضد الفرنسية والاستعمار الفرنسي

الازدواج اللغوي

مبدأ التعريب في مغرب الاستقلال

تهافت شبه دعاة الفرنكفونية في المغرب

التخلف عن المعركة الوطنية (معركة تعريب التعليم)

رواد الخطاب العولمي

السيولة في مقارنة موضوع الهوية

إصلاح التعليم بالمغرب: مجال من التردد والتجريب وتكريس الطبقية

والاستعمار

قراءة في مواقف النخب الوطنية من فرنسة التعليم (رفض القانون الإطار

رقم 51.17)

قراءة في مضامين البلاغ الأول الصادر عن "الجبهة الوطنية لمواجهة

الفرنكفونية"

مسؤوليات الجبهة وواجب الشعب المغربي

خلاصة الدراسة

## 1-التعليم قضية وطنية / تطبيقية:

لقد كان الأسياد في اليونان القديمة يذمون العمل ويمدحون الفكر، وذلك لأنهم كانوا يذمون العبيد أول الأمر. فارتبط العمل الشاق بالعبيد دون غيرهم، فيما ارتبطت المعرفة بالأسياد دون غيرهم.<sup>1</sup>

فهل سبق لأحدكم أيها القراء أن سمع عن عبد إغريقي يتفلسف؟ وهل كان سقراط عبداً؟ وهل كان أفلاطون عبداً؟ وهل كان أرسطو عبداً؟ السفسطائيون الذين هم أقرب أهل النظر إلى الناس، هل كانوا عبيداً؟ لم يكن العبيد آنذاك يهتمون بالتفكير، بل لم يكن في استطاعتهم ذلك. لا فراغ لهم للمعرفة، ولا شأن لهم بما هو من اختصاص الأسياد.

السيد هو الذي ينزع إلى المعرفة دون غيره، وكذلك كان في اليونان القديمة. ألم تسمع عن سقراط يقول: "الحمد لله الذي خلقني حراً، ولم يخلقني عبداً".

إن سقراط بقوله هذا يعلن امتعاضه من العبيد الذين يعملون ولا يفكرون، في حين لا يتصور هو نفسه بعبداً عن "الحكمة ومحبتها".

يعمل العبيد دون توقف، وينتجون فائض القيمة<sup>2</sup> لأسيادهم. يعيش هؤلاء على فائض القيمة، فلا يضطرون للعمل الشاق.

---

1-هشام غصيب، محاضرة بعنوان: "الماركسية". عبد الصمد بلكبير، مقال بعنوان: "طلبة المغرب بين الشائنين والنقابيين والسياسيين الوطنيين".

وبين الأسياد تظهر فئة مفكرة، هي نفسها تعيش على فائض القيمة الذي ينتجه العبيد المستغلون المغتربون. فكيف لهذه الفئة أن تنصر العبيد وتدافع عنهم؟ وبعبارة أخرى: كيف لهذه الفئة أن تقف في وجه مصلحتها ومصلحة من ينفق عليها؟

لن يحدث شيء من ذلك أبداً. لن يتعلم إلا سيد، ولن يتفلسف إلا ذو فراغ يستفيد من فائض القيمة بطريقة من الطرق.

ألم تسمع عن أولئك السفسطائيين الذين كانوا يقصدون دور الأسياد لتدريس أبنائهم بمقابل من المال؟ هل كان بإمكان العبيد أن يضمنوا لأبنائهم نفس الحظ من التدريس؟

لقد مدح علي الوردي<sup>3</sup> هؤلاء السفسطائيين أكثر مما يتصور، إذ أكبر فيهم وضعهم الأساس الأول للمدرسة. وتلك حقيقة، ولكنها تخفي خلفها حقيقة أفضح.

---

2- فائض القيمة أو القيمة الزائدة: ينتجها العبد للسيد، أو الفلاح للإقطاعي، واليوم ينتجها العامل (حيث يغترب عما ينتجه) وهو يعيش "عبوديته المأجورة" مضطراً لبيع قوة عمله للرأسماليين مالكي وسائل الإنتاج.

عموماً، القيمة الزائدة: "قانون يتيح فهم وتفسير جميع التفاعلات والظواهر التي تطرأ على المجتمع البورجوازي. وهو يعبر عن الجوهر الاستثماري لهذا الأسلوب الإنتاجي. وهو يشترط بفعله اشتداد المزاخمة وفوضى الإنتاج في ظروف الرأسمالية، وتفاقم بؤس الجماهير الكادحة، واستشراء البطالة وتعمق جميع التناقضات الرأسمالية واشتدادها". (راجع: "أسس الاقتصاد السياسي" لصاحبه: نيكيتين، ص 56)

3- انظر: "مهزلة العقل البشري"، علي الوردي.

إن السفسطائيين يهبون لتعليم من ينفق عليهم، وما المنفقون إلا أسياد يعيشون على فائض القيمة الذي ينتجه العبيد. فهل كان بإمكان الأسياد أن يؤسسوا مدرسة يتساوى فيها أبناؤهم وأبناء مستغليهم؟

لن يخطر هذا الإمكان على بال عاقل، فكل مدرسة كانت ستتأسس آنذاك لم تكن لتعبر إلا عن مصلحة الأسياد ولم تكن لتأوي إلى أبناءهم.

فالمعرفة هيمنة، هكذا تحدث ميشيل فوكو. والمدرسة مدرسة الطبقة المهيمنة ومختبر عنفها الرمزي، هكذا تكلم بيير بورديو.

قد يعترض بعضهم بالإصلاحات التعليمية التي كانت تعبر عن حسن طوية القائمين بها رغم انتمائهم إلى طبقات مهيمنة، ومن ذلك اعتراض بعضهم ب "المدارس النظامية" التي أسسها نظام الملك وفتحها في وجه عموم الناس أخذا برأي أبي حامد الغزالي.<sup>4</sup>

لن ينكر أحد مكانة هذه المدارس ودورها في دفع فتنة الفرق الشاذة التي كانت ستعصف بالدولة آنذاك، ولكنها لم تكن تمثل في نهاية المطاف إلا مصلحة نظام الملك الخائف على حكمه. فحكمه من الدولة وبقاؤه من بقائها. والفتنة إنهاء للدولة، وإنهاء للحكم معا.

\*\*\*\*\*

وفيما يخص الحديث عن تطبيقية التعليم في المغرب، وجدنا أنفسنا مجبرين على طرح الأسئلة التالية:

---

4-راجع: موقف عبد الصمد بلكبير من أبي حامد الغزالي.

- ما هي المصالح الطبقية التي كانت تعكسها مقررات جامعة القرويين قبل التدخل الاستعماري الفرنسي؟
- مصالح من كانت تمثل المدارس الفرنسية ونظيرتها الإسرائيلية في مغرب الاستعمار الفرنسي؟
- هل الإصلاحات التي قام بها المستعمر وفتح المدارس الحرة والتراجع عن المدارس الفرنسية البربرية... هل كل ذلك مجرد صدفة؟
- هل بإمكان أحد القراء أن يقنعنا بأن تعميم التعليم غداة الاستقلال كان خطوة عفوية لم تفرض على الحاكمين؟
- ألا تعبر المبادئ الأربعة للتعليم عن واقع طبقي حَكَم مغرب الاستقلال؟

\*\*\*\*\*

إن التعليم التقليدي عامة، ومقرراته بجامعة القرويين خاصة... كل ذلك كان خاضعا لسياسة السلاطين، تلك السياسة التي لم تكن لتمثل إلا مصالح الطبقة النافذة في الدولة. ولم تكن تلك الطبقة إلا طبقة الإقطاعيين الذين تأسس حكمهم على ذلك الأساس، أي على أساس طبقي.

لقد كانت مقررات التعليم آنذاك تتسم بالآتي:

- التركيز على الحفظ دون الفهم (أو بقله الفهم وضيق مجاله).
- الاكتفاء بالتقليد والجمود عليه دون تجديد وفق ما يطلبه التطور التاريخي.

- الاقتصار على علوم الآلة وتحديد الغايات وفق ما يخدم الطبقة الحاكمة.
  - جمود أساليب التدريس وطرق التعبير دون أدنى تجديد يذكر...
- هذا ما عمل الاستعمار على الحفاظ عليه، ولكن بنوع من التجديد على مستوى الأساليب التي لم تمس المضمون الرجعي في شيء.
- لقد كان هذا التجديد شكليا خادعا، فظفر المستعمر معه بالحسنين: الحفاظ على الرجعية لتحقيق له السيطرة كما تحققت للسلطين قبله، والحيلولة دون هجرة الطلبة المغاربة إلى المشرق فيعودوا محملين بفكر النهضة من هنالك.<sup>5</sup>

\*\*\*\*\*

ما الاستعمار؟

"الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية"، هكذا تكلم لينين.

يعتقد الجابري أن القضية طبقية بالنسبة للمغرب في علاقته بالاستعمار العسكري، وهي كذلك. إلا أنها طبقية ووطنية في نفس الوقت. طبقية لأن الرأسمال الفرنسي لم يكن ليتسرب إلى المغرب لولا دخوله في علاقة تناقض مع العمل المغربي، ووطنية لأن كل الطبقات الوطنية ستجد نفسها في الأخير مضطرة إلى مواجهة الاستعمار الفرنسي.

ما المستفاد من هذه النتيجة إذن؟

---

5-محمد عابد الجابري، أضواء على مشكل التعليم بالمغرب، دار النشر المغربية، ص 8-12.

المستفاد هو: أن كل سياسة تعليمية استعمارية فرنسية، فهي تخدم في نهاية المطاف الرأسمال الفرنسي. أي أنها سياسة تعليمية طبقية، "عنف رمزي وسيطرة" يوجهها الرأسمال الفرنسي من باريس.

وفي هذا الإطار يأتي: الحفاظ على رجعية التعليم التقليدي (في جامعة القرويين خاصة)، وتوفير مختلف أنواع الدعم والمساعدة للمدارس الإسرائيلية، وفرض المدارس الفرنسية بطرق غير مباشرة (ومن ذلك الإيحاء بتفوقها وحداتها وانفتاحها على سوق الشغل، ثم الدعاية لها أكثر من غيرها) على الجميع، وتوجيه التعليم الفرنسي في المغرب توجيهها طبقياً حسب منزلة كل طبقة على حدة...<sup>6</sup>

فهل بقي الشعب المغربي مكتوف الأيدي تجاه هذه السياسات الظالمة والاستعمارية؟

لم يعتد المغاربة الذل. قد يتراجعون لفترة من الزمن، ولكنهم سرعان ما يعودون للمواجهة بقوة.<sup>7</sup>

\*\*\*\*\*

انطلقت الحركة الوطنية مع "الظهير البربري"، ولذلك دلالة لا ينبغي إغفالها. فانتفاضة الشعب المغربي بمختلف مكوناته في وجه فرنسا الأمازيغ لها أكثر من معنى:

---

6- نفسه، الفصل الأول: "أسس ومضامين".

7- يردد ألبير عياش هذه الفكرة كلما وقف على نهوض مغربي بعد سبات مؤقت، وهي نفسها القناعة التي تملأ فؤاد علال الفاسي.

- الوعي بخطورة المدارس الفرنسية البربرية: عبر عنه تمسك الوطنيين -  
ومنهم الأمازيغ<sup>8</sup>- باللغة العربية كلغة تدريس وبالثقافة الإسلامية كمضمون  
له.

- الوعي بأهمية الوحدة في مواجهة الاستعمار: عبر عنه دعاء "اللطف"  
الذي رفعه المغاربة في المساجد.

- قابلية أغلب مكونات الشعب المغربي للانتفاضة نظرا لتضرر مصالحها من  
الاستعمار الفرنسي: عبر عنه اتفاق أغلب المكونات على عدو واحد هو  
الاستعمار...

الهدف الأساسي الذي كان يصبو "الظهير البربري" إلى تنفيذه هو: فرنسة  
المغاربة الأمازيغ بواسطة المدارس البربرية الفرنسية، وهي مدارس يقول  
عنها محمد عابد الجابري: "بربرية بالتلاميذ، فرنسية بالأساتذة".

---

8- لقد دار بيني وبين الحاج عمر أوشن، وهو رجل أمازيغي يتجاوز اليوم الثمانين من عمره، من  
خريجي "جامعة القرويين" في السنوات الأولى بعد الاستقلال... قلت: دار بيني وبينه نقاش  
بخصوص مدى تفوق الطلبة الأمازيغ في تحصيل دروس اللغة العربية، فأجابني بأن التفوق  
كان حليف الأمازيغ كما كان حليف غيرهم من العرب، ولم يكن هذا التمييز بين عرب وأمازيغ  
ليهتم به أحد أبدا. الرجل نفسه (عمر أوشن، ابن مدينة "تاهلة"، إقليم تازة) يتحدى بالعربية  
أصوله الأمازيغية كل يوم، فلا يفتر لسانه من قول الشعر واستظهار المنظومات والتذكير  
بقواعد النحو وعلم العروض.

الأمازيغ مغاربة، وليسوا "مزوغيين". يعتزون بأمازيغيتهم، ولكنهم يحبون اللغة العربية  
الفصحى. يتكلمون الأمازيغية مع بني جلدتهم (وهذا حال شيخي عمر أوشن أيضا)، ولكنهم  
يدافعون عن العربية الفصحى لغة القرآن والدولة والفكر والعلم والدولة.

صدر "الظهير البربري"، فانتفض الشعب المغربي وانطلقت حركته الوطنية مستمدة قوتها من عراقته. لقد مثل هذا الظهير انتكاسة للاستعمار الفرنسي عوض أن يمثل تقدمه وتوسع مصالحه، ومباشرة بعد إصداره:

- أظهر الشعب المغربي وعيه بوحدته ومصالحه.

- تشكلت الحركة الوطنية من رحم الشعب المغربي المعطاء.

- بدأت حركة المطالبة بالإصلاحات.

- وهو ما دفع المستعمر الفرنسي إلى التراجع عن المدارس الفرنسية-البربرية.

هل ما قام به المستعمر الفرنسي يفرض كل هذه الانتفاضة؟

وكيف كانت السياسات التعليمية الاستعمارية ضد مصلحة الوطن ومصالح طبقاته المختلفة؟

إن سياسات المستعمر لا يمكن إلا أن تكون ضد الوطن، ولكن ما الذي يعنيه ذلك في الحقيقة؟

إنه يعني أن تلك السياسات لا يمكن أن تكون إلا ضد مصالح كل الطبقات والفئات التي يتكون منها المجتمع المغربي.

إنها سياسات ضد مصالح: الرأسمال المغربي، العمل المغربي، الطبقة الوسطى، النخبة التقليدية...

ضد الرأسمال المغربي، لأن التعليم الفرنسي ينحو منحى حصر مصالح هذا الرأسمال في حدود ضيقة وضعت له سلفاً.<sup>9</sup>

ضد العمل المغربي، لأن هذا التعليم يقوي الرأسمال الفرنسي، وهذا في تناقض وفي صراع تناحري مع العمل المغربي.

ضد الطبقة الوسطى، لأن هذا التعليم "يعيد بناء البنيات الاجتماعية" (بيير بورديو). وبالتالي يعيد بناءها هي نفسها، ويفرض عليها حدوداً وقيوداً كما يفرضها على الرأسمال المغربي.

ضد النخبة التقليدية، لأنه يكون نخبة عصرية فرنسية تزاخم هذه النخب وتنافسها في المناصب وتسلبها مكانتها في الإدارة...

إن هذه الطبقات جميعها هي التي ستواجه الاستعمار، وهي التي ستفرض عليه التخلي عن شكله التقليدي (الشكل العسكري وتصدير جهاز الدولة). وذلك لصالح الرأسمال المغربي التبعية، ولصالحها هي أيضاً في السنوات الأولى للاستقلال.<sup>10</sup>

---

9- هناك من يعتقد أن الرأسمالية، كنظام اجتماعي، ثابتة لا تتغير. ولكن العكس هو الحاصل، إذ المغرب في علاقته بالرأسمال الفرنسي زمن الاستعمار العسكري ليس هو المغرب في علاقته بهذا الرأسمال زمن الاستعمار الجديد. ولا يخفى على مهتم أن التحولات التي شهدتها المركز الرأسمالي بعد الحرب العالمية الثانية قد أثرت بشكل كبير على علاقة المغرب بالرأسمال العالمي، وخاصة بعد تراجع الرأسمال الفرنسي لصالح رساميل أخرى (الرأسمال الأمريكي خصوصاً).

10- هذا التحليل يعود في الأصل لعبد السلام المودن، "الدولة المغربية: قضايا نظرية"، الملتقى، الطبعة الثانية، 2018.

غداة الاستقلال، واصل الشعب المغربي نضاله من أجل تعميم التعليم، فناضلت أسر بأكملها ("نضال الأمهات" كما أشار إليه عبد الصمد بلكبير) لأنها كانت تعتقد أن المستقبل في دولة الاستقلال لمن تعلم وتخرج من المدرسة العمومية المغربية.

يقول محمد عابد الجابري بهذا الخصوص: "وهكذا، فبمجرد الإعلان عن الاستقلال، انفجرت هذه الرغبة المكبوتة لدى جماهير شعبنا، رغبتها في تعليم أبنائها، وإعدادهم للمستقبل المأمول، فأصبحت المدارس تحاصر ليل نهار، ولمدة أسابيع، خلال بداية كل موسم دراسي عرفته السنوات الأربعة التي تلت الإعلان عن الاستقلال، تحاصر من طرف الآباء والأمهات الذين ينتظرون تسجيل أبنائهم، ويلحون على عدم مغادرة أبواب المدارس إلا بعد الحصول على المقاعد المطلوبة.

لقد كانت ظاهرة غريبة حقا، تلك التي عرفت مدارسنا خلال السنوات الأولى من عهد الاستقلال، لقد ترك الآباء أشغالهم، وغادرت الأمهات والأخوات منازلهن، ليرابط الجميع، ولمدة عدة أيام بلياليها أمام المدارس، عند بداية كل موسم دراسي، وأملهم الوحيد في الحياة التمكن من تسجيل الأولاد في قسم من أقسام المدرسة.<sup>11</sup>

## ألم يكن "تعميم التعليم" هنا نتيجة واقع طبقي؟

يجيب الجابري: "وإذن، فإن الانفجار التعليمي الذي نتحدث عنه ما هو في حقيقته وجوهره سوى شكل من أشكال الصراع الطبقي. لقد أدركت جماهير شعبنا، بوعياها الساذج آنذاك، أن مفتاح الحصول على وضعية مادية ومعنوية لائقة، وأن الطرق إلى السلطة والنفوذ، بمختلف مستوياتهما هو التعليم".<sup>12</sup>

إن الواقع الطبقي الذي فرض "تعميم التعليم" على الحكومات المغربية المتعاقبة على مغرب الاستقلال... إن هذا الواقع هو الذي سيؤدي إلى وضع المبادئ الأربعة للتعليم بالشكل الذي وضعت به، وهو نفس الواقع الذي أكسبها "طابعها التوفيقي" بتعبير محمد عابد الجابري.

لقد عبرت هذه المبادئ آنذاك عن مصالح كل المتفاوضين المختلفين طبقياً، وليس عن مصلحة شعب لتوه خرج من شرنقة الاستعمار حالما بوضع جديد.

حدث التفاوض بين ثلاث طبقات: "بورجوازية وطنية، وأرستقراطية دينية، وجماهير الشعب الكادح"، فأفرز مبادئاً توفيقية (المبادئ الأربعة للتعليم) لم تستوعب مشكلة التعليم بعمق -في نظر الجابري- لأنها جاءت غامضة. فكل واحدة منها جاءت تنفي فاعلية الأخرى، ومن ذلك نفي "مغربة الأطر"

لفاعلية "تعريب التعليم".<sup>13</sup> (وهذا ما سنناقشه في محور: "لغة التدريس قضية تطبيقية")

## أولاً: اللغة والطبقات والوطن (نقاش نظري).

### ما اللغة؟

نظرا لتعدد وظائفها في كل مجتمع مجتمع، فقد نبه الدين (الإسلام خصوصا) إلى أهميتها ومكانتها في مواضع عديدة. فقد تميز آدم وتسامى على الملائكة بأن علمه الله الأسماء كلها (اللغة، اللسان)، وقد أرسل الله كل رسول بلسان قومه ليبين لهم، وقد أعجز الله قريشا ببلاغة القرآن وقوة خطابه...

كلها معانٍ تدل على أن الدين وجه الإنسان إلى معرفة مكانة اللغة وبعض وظائفها، فهي: ملازمة للإنسانية، ووسيلة للتواصل، وبالتالي وسيلة للإقناع، وناقلة للفكر والثقافة...

لقد وجهت الحكمة (القرآن) الإنسان في الماضي، واليوم توجهه المعرفة. ولا تناقض بين التوجيهين عند من ميز بين الحكمة والمعرفة، فأعطى كل ذي حق حقه. فالمعرفة خبرة حسب كل مرحلة تاريخية على حدة، والحكمة خبرة خالدة.

يعرف فردينان دي سوسير اللغة بقوله: "هي النتاج الاجتماعي المخزون في دماغ كل فرد من أفراد مجتمع ما".

أما جوزيف ستالين فهو يعرف اللغة قائلًا: "إن اللغة تختلف اختلافًا جذريًا عن البناء الفوقي. فاللغة لم يفرزها هذا البناء التحتي أو ذاك، قديما كان أو جديدًا، في قلب مجتمع معين. بل يفرزها كل سير تاريخ المجتمع وتاريخ الأبنية التحتية على مر العصور. فهي ليست صنع طبقة معينة، بل صنع كل المجتمع، صنع كل طبقات المجتمع، ونتاج جهود مئات الأجيال".

اللغة، كما يتصورها ستالين، تخدم شعبا بكامله لا طبقة بعينها. وهي لغة التواصل بين الجميع، واقتصارها على فئة بعينها دون فئات أخرى -في نظره- يهددها بالزوال.<sup>14</sup>

وفي نظر نعوم تشومسكي، فاللغة "جزء من النمو البشري والمكلف بالتقاطها هو بعض مكونات العقل". قبل أن يتحدث نعوم تشومسكي عن علاقة الإنسان بمحيطه الخارجي، يؤكد أن "المبادئ المحددة في تركيبه الإنسان (وهي من طبيعته) هي التي تحدد كيف يجب على اللغة أن تكون، وكيف بإمكاننا أن نتحدث ونتواصل ونفسر علامة ما أو بضعة أسطر".

لا يقف تشومسكي عند هذا الحد، ولكنه يربط اللغة بما يحيط بها من عوامل خارجية. فاللغة -في نظره- تتغير هيكلها ودراماتيكية بسبب عدة عوامل (جغرافية، اقتصادية، سياسية...)، وليس بشكل عشوائي.<sup>15</sup> (من

حوار لنعوم تشومسكي)

---

14- جوزيف ستالين، دراسة بعنوان: "حول الماركسية، في علم اللغة".

15- من حوار لنعوم تشومسكي.

يختار عبد الصمد بلكبير تعريف اللغة بتاريخها والوقوف عند العوامل التي أنتجتها، وهو بذلك يعزز التعاريف السابقة بالتاريخ ولا يلغيها.

يقول بلكبير: "أكثر القرائن تؤكد أن رموز التواصل البشري الأول، كانت صوتية لا صوتية، سواء بالحركات أو بالرسوم... غير أن اختراع اللغة يعتبر أعظم ثورة تحول نحو "الإنسانية"، وذلك خاصة بتوفيرها بنكا لتراكم الخبرات والأخبار والحكمة... سهل الحفظ وسهل النقل (في الزمن والمكان)".

إن بلكبير يميز بين اللغة الشفوية ونظيرتها الكتابية، ولا يتساهل في ذلك (وكذلك نعوم تشومسكي). ولذلك فهو يؤكد أن "الكتابة الصوتية، وأرقامها الحروفية، كانت منتج تأسيس الملكية الخاصة والتجارة، ثم خاصة ظهور الدولة، إذن الدين والقانون والأخلاق والمدنية... ومنذ ذلك (3200 سنة)، لم يتوقف تقدم الإنسان، وذلك بعد أن راوح مكانه خلال 6 ملايين عام خلت من ما قبل التاريخ"<sup>16</sup>.

الخلاصة التي يمكن أن نخرج بها من خلال التعاريف السابقة هي كالتالي:

- حاجة الإنسان إلى وسيلة ناجعة للتواصل (غير الرسوم والحركات)، جعلته يبتدع اللغة الشفوية. وبدوره هذا الاختراع أثر على حياة الإنسان، وقدمه خطوة إلى الأمام.

---

16- عبد الصمد بلكبير، من مقال على ظهر غلاف كتاب: "التيفيناغ"، لصاحبه: عبد العزيز الصويغي.

- هناك عدة عوامل دفعت الإنسان لاختراع الكتابة، فهذه كانت انتقلا من مرحلة إلى مرحلة أخرى. واكتشاف الكتابة بدوره شكل لبنة أساسية من لبنات تقدم الإنسان، فبدأ التاريخ وبدأت الحضارة الإنسانية في التشكل.

- هناك عدة عوامل أنتجت اللغة وطورتها، وكذلك تتدخل عوامل أخرى في تغيير اللغة.

- لقد أثر اكتشاف اللغة (شفوية وكتابية) في حياة الناس بشكل كبير، وكذلك يؤثر تغييرها في حياتهم.

الملاحظ هو أن اللغة تُحدّد كنظام داخلي، كما تحدد في علاقتها بالظواهر المحيطة بها (تأثيرا وتأثرا).

### هل اللغة بنية فوقية؟

يعتقد كثيرون أن اللغة بنية فوقية، وما هي كذلك. إنها أقدم وأعرق من الطبقات، وذلك ما يفسر استعمال مختلف الطبقات للغة بعينها.

تعبر اللغة عن وحدة شعب، وتعبر عن كل الطبقات الممثلة لهذا الشعب إلا من أراد منها أن ينتكس لصالح الاستعمار (وبالتالي لصالح لغته).

نقرر هذا، ونسجل ما يلي:

- اللغة شيء، وحمولتها الثقافية شيء آخر. فاللغة ليست بنية فوقية، أما حمولتها الثقافية فهي كذلك.<sup>17</sup>

- اللغة تعبر عن شعب بأكمله، ولكن السياسة اللغوية في المستعمرات (قد يكون الاستعمار جديدا كما كان عسكريا في الماضي القريب) تعبر عن المصالح الاقتصادية والسياسية للرأسمال الإمبريالي.

هذا ما استنتجناه من بحث لجوزيف ستالين في ماهية اللغة، وذلك حسب منظوره الماركسي.

هناك فرق بين اللغة الشفوية (العاميات) واللغة الكتابية (الفصحى)، وهذا هو التمييز الذي ساقه عبد الصمد بلكبير بينهما:

فالفصحى هي: لغة العلم وإدارة الدولة، ثابتة، تجريد التجريد، تصوغ الأفكار، ظاهرة تاريخية، تحقق الاتصال بين إدارة الدولة وإدارة المجتمع، ذاكرتها طويلة وحاضرة ومثقلة، الإبداع فيها لا يتحقق للعامية لأنه يطلب بذل الجهد، صناعة، مضامينها ومحتوياتها غنية... أما العامية فهي: لغة القبائل والطوائف وعامية الناس في المجتمع، متغيرة، تجريد للواقع بالصوت، تنقل الواقع، ظاهرة وجودية، تحقق الاتصال بين أفراد المجتمع، ذاكرتها قصيرة، الإبداع يتحقق لعموم الناطقين بها، طبيعة، مضامينها ومحتوياتها فقيرة...<sup>18</sup>

إن هذا الانتقال من الشفهية إلى الكتابية هو ما يريد دعاة التبعية أن يقضوا عليه، وبالتالي تفكيك الدولة والعودة بنا إلى ما قبلها.

---

18- عبد الصمد بلكبير، دراسة بعنوان: "الكتابية والشفاهية"، الملتقى، العدد 41، 2017، ص 3-

لقد ظهرت الكتابية مع الدولة. لقد كانت تعبر عن بداية التاريخ، وبذلك كانت ظاهرة اجتماعية تاريخية. الدولة هي: جهاز حكم طبقة وإيديولوجيتها التبريرية (راجع "مفهوم الدولة"، عبد الله العروي)، والكتابية تعبر عن الدولة أكثر من الشفاهية.

الكتابية تاريخية إذن، إنها لغة الدولة.

إذا كانت الشفاهية هي لغة عموم الشعب، فإن الكتابية هي لغة الطبقة المسيطرة. إنها لغة كل الأنشطة التي تخدم هذه الطبقة، وبالتالي كل الأنشطة التي تشرف عليها الدولة.

تنتكس الطبقة المسيطرة لصالح الاستعمار ولغته، فتتضرر مصالح الشعب جراء ذلك. الكتابية طبقية (تاريخية)، ولكنها أيضا لغة الدولة. ينتفض الشعب لحماية كتابيته، وذلك لحماية دولته من الاستعمار. إنه في الأصل يدافع عن اللغة الأصيلة للطبقة، ولكنها لغته التاريخية أيضا.

في دولة مستقلة (ما لم تنتكس الطبقة المسيطرة لصالح الاستعمار ولغته)، يتضرر الشعب الكادح في تناقضه مع الطبقة المسيطرة. إلا أن الضرر يتضاعف في وضعية استعمارية، حيث تفرض القيود على الرأسمال الوطني وتزداد الطبقات الأخرى فقرا.

الطبقة الوسطى (البورجوازية الصغيرة) هي التي تواجه انتكاس البورجوازية الكبيرة، والطامة الكبرى هي أن تتراجع الطبقة الوسطى عن

مهمتها التاريخية. فتنتم عملية طمس لغة دولة رغما عن أنف الشعب الكادح، وهو المتضرر الأكبر من التبعية والاستعمار.

هل بين بلكبير وستالين تناقض؟

لا ثم لا...

الأول يريد حماية لغة الدولة، والثاني يتكلم عن لغة التواصل.

الأول يتكلم عن الكتابية كظاهرة تاريخية (طبقية)، والثاني يتكلم عن الشفاهية كظاهرة وجودية (ما قبل طبقية).

الأول يتكلم عن لغة دولة يهددها الاستعمار الجديد، والثاني يذكر الجميع بأن اللغة الروسية هي لغة الجميع وهي لغة كل الطبقات (بالرغم من وجود صراع طبقي داخلي).

### ثانياً: من المسؤول عن تخلف اللغة العربية؟

هناك من يريد أن يدلّس علينا بقوله: "اللغة العربية الفصحى متخلفة، فلنتركها إذن".

ولكن السؤال المطروح هو كالتالي: من المسؤول عن تخلف اللغة العربية الفصحى؟ وبأي حق تكون الفرنسية أكثر منها تقدماً؟

فلنجد على السؤال الأول، ولنترك الجواب على السؤال الثاني إلى حين فضح شبه كل من نبيلة منيب وأحمد عصيد وحسن أوريد.

يمكن حصر مسؤوليات تخلف اللغة العربية في ثلاث مسؤوليات متعاقبة:

- حكام مغرب ما قبل الاستعمار.

- المستعمر الفرنسي.

- سياسات الازدواج اللغوي غداة الاستقلال.

### ملحوظة:

للجواب على سؤال: من المسؤول عن تخلف اللغة العربية؟ سنعتمد مرجعين أساسيين هما: كتاب "أضواء على مشكل التعليم بالمغرب" لمحمد عابد الجابري، وكتاب "الدولة المغربية: قضايا نظرية" لعبد السلام المودن.

\*\*\*\*\*

- حكام مغرب ما قبل الاستقلال:

إن ما ابتلي به التعليم العتيق ابتليت به لغته (اللغة العربية): التقليد والجمود والبعد عن هموم الناس. نتحدث هنا عن التعليم العتيق الذي ساد قبل دخول الاستعمار الفرنسي<sup>19</sup>، التعليم الذي كان يخدم حكام المغرب

---

19- إن التعقيد والكثير من اللف والدوران واعتماد التعبيرات التقليدية التي تجاوزها العصر... كل ذلك وغيره، هو ما لم يستطع الكثير من الشيوخ ومدرسي العلوم الشرعية واللغوية التخلص منه لصالح خطاب ووسائل أخرى تقرب المعاني وفق مستجدات العصر ومراعاة للتحديات التي تواجه جيلا من الشباب بأكمله. قد يتمتع بعض المشايخ من هذا القول وكأنه دعوة إلى تحريف المعاني وضرب الجدية المطلوبة، ولكن فليعلموا أن الجمود على الخطاب العتيق والتعقيد المنفر سيكون في متناول المتفرغ دون اهتمام بأغلبية تركت للفرنسة وقيم الرأسمالية المتوحشة وحادثة الإمارات ومخططات "الاستشراق الجديد". فليجمد المشايخ إذن، ولكن الحصيلة ستكون كارثية في نهاية المطاف.

آنذاك بتكريس الخنوع والبلادة (إلى حدود 1920)، وإلا فقد كان التعليم العتيق يؤدي أدوارا طلائعية قبل ذلك كما أداها بعد ذلك.

لقد كانت اللغة العربية في الجامع لغة علمائية، وذات تعابير تقليدية. فارتبطت الفصحى بذلك إلى درجة أن ظنها كثيرون لغة تقليد لا لغة تجديد، لغة علوم شرعية ولغوية لا لغة علوم طبيعية وتقنية وإنسانية.

عندما نتكلم عن القرن العشرين الفرنسي، فنحن نتكلم عن تراكمات من التقدم والحداثة تم التعبير عنها بلغة فرنسية راقية وبسيطة يفهمها الشعب. وهذا ما لم تكن العربية قد حققتة بعد بفعل الإخفاق الذي منيت به البورجوازية المغربية لصالح الإقطاع، أي الإخفاق الذي منيت به الحداثة لصالح التقليد.

يقول محمد عابد الجابري: "لم يكن من الممكن، إذن، أن تتجذر هذه الطلائع البورجوازية، ولا أن تقوم بما قامت به مثيلاتها في الشرق من نشر الإيديولوجيا الليبرالية الغربية وإنشاء تعليم عصري يحمل هذه الإيديولوجيا. ولذلك ظل الفكر الإقطاعي هو السائد، وظل التعليم في المغرب تعليما عتيقا منحطا يجتر نفسه ويعكس وضعية شاذة مهزوزة متخلفة".<sup>20</sup>

الإقطاع المركزي هو من كان يفرض سياساته، وبالتالي سياساته التعليمية.

وما مني به التعليم المغربي آنذاك، هو ما منيت به لغته.

\*\*\*\*\*

## - المستعمر الفرنسي:

وهنا سنناقش: المدارس الإسرائيلية، والمدارس الفرنسية، والمدارس الفرنسية البربرية، ونضالات الحركة الوطنية.

## **المدارس الإسرائيلية:**

هي مدارس كانت تعود للطائفة اليهودية بالمغرب. لقد كانت هذه المدارس تدرس اللغتين العبرية والفرنسية ومختلف العلوم بهذه الأخيرة، فلم يواجهها المستعمر الفرنسي. بل عمل على توسعها وانتشارها أكثر مما كانت عليه، وذلك لأنها كانت تخدم مصالحه على اعتبارين:

- تشجع سياساته الفرنكفونية وتمهد لها.

- تخضع لتقسيمه الطبقي.

يقول محمد عابد الجابري: "لقد وجدت الحماية الفرنسية بالمغرب تعليماً إسرائيلياً حديثاً (20 مدرسة سنة 1908 بها نحو 4000 طفل) يتخذ من اللغة الفرنسية لغة علم وثقافة، فشجعت وأمدته بالمساعدة وأولته كامل الرعاية كما سنرى فيما بعد".<sup>21</sup>

اليهود مغاربة، ولكنهم يدرسون بالفرنسية ويهجرون العربية. هذا هو أول مكسب للفرنسية ضد على لغة البلاد: العربية.

## المدارس الفرنسية:

هي مدارس منتشرة في المدن، ويحرم منها أبناء البوادي.

كثير من أبناء البوادي والمناطق النائية أمازيغ، وبالتالي يكون حرمانهم من التعليم حرمانا لهم من تعلم اللغة العربية (لغة الدولة)، فضلا عن "الدوارج" لهجات المجتمع (لغة التواصل).

البوادي العربية نفسها كانت تحرم من التعليم، وبالتالي من اكتساب لغة الدولة (اللغة العربية).

لا يمكن أن ننفي هنا مقاومة الفقهاء والشيوخ وأهل القرآن، عربا وأمازيغ، وسعيهم إلى الحفاظ على مكانة اللغة العربية. ولكن ما تقدر عليه السلطة وما تفرضه المصالح لا يقارن ببعض المجهودات المنتشرة هنا وهناك.

لقد كانت المدارس الفرنسية مدارساً طبقية، فكان يحرم منها أبناء البوادي كما يحرم منها الكثير من أبناء المدن المغاربة. لم تكن غاية هذه المدارس تثقيف المغاربة وتعليمهم، وإنما كان هدفها هو استيعاب ما هي في حاجة إليه من أبناء المغرب (الأقلية فقط) لخدمة المصالح الاقتصادية والسياسية للرأسمال الفرنسي وتحويل الشعب المغربي شيئاً فشيئاً إلى ملحقه الفرنسية.

لم يكن التعليم التقليدي (العتيق) قادرا على منافسة المدارس الفرنسية، وذلك بسبب تخلف مناهجه وأساليبه. ففقد مكانته في ظل النظام الكولونيالي، وأخذ الطلاب ينفرون منه في نهاية المطاف.

هذا هو حال الأكثرية من أبناء المغاربة، من البادية والمدينة. أما الأقلية فقد كانت تحظى بتعليم فرنسي (يسمى "إسلاميا"، ولكنه لم يكن كذلك إلا بالاسم عند محمد عابد الجابري)، تعليم لا مجال فيه للغة العربية عدا بعض التعديلات الهزيلة التي شهدتها بعد سنة 1944. وتلك تعديلات لم تكن لتخرج للوجود إلا شكلية ومدروسة لصالح اللغة الفرنسية، وبالتالي لصالح الرأسمال الفرنسي. ومن مظاهرها ما يلي:

- تدريس اللغة العربية في أوقات العياء والملل.

- عدم اتخاذ أي مناهج لتدريس اللغة العربية مقابل اتخاذها ببراعة فيما يخص تدريس اللغة الفرنسية.

- عدم التشديد على التلاميذ في الالتزام بواجبات كل ما يتعلق باللغة العربية...

لقد كانت اللغة العربية أجنبية في أرضها وبين أبنائها، وبعبارة أدق: لغة أجنبية لا تهتم بها المنظومة التعليمية الكولونيالية، وبالتالي لا يهتم بها التلميذ.

وهذا هو الجزء الأهم -بالنسبة إلينا- في الحصيلة اللغوية للفترة الكولونيالية.<sup>22</sup>

### المدارس الفرنسية-البربرية:

هي مدارس تم إنشاؤها لتعميق الهوية بين البوادي والحوضر، بين مركز الدولة وأطرافها (المركز والأطراف: تعبيران لسمير أمين في سياق دولي). إنها مدارس لنشر الفرقة بين مكونات الشعب المغربي، فيصبح بعضهم وفيها للحركة الوطنية فيما يصبح البعض الآخر وفيها للاستعمار والفرنكفونية. لقد كانت لغة التدريس في المدارس الفرنسية-البربرية هي الفرنسية، وذلك لأنها كانت "فرنسية بالمعلمين، بربرية بالتلاميذ".<sup>23</sup>

"فرنسية بالمعلمين"، أي أنها لا تقبل "أي شكل من أشكال تعليم العربية، أو أي تدخل من جانب الفقيه، أو أي مظهر من المظاهر الإسلامية".<sup>24</sup>

إنها مدارس تريد أن تقلب: اللسان فرنسيا، والثقافة فرنكفونية، والذهنية فرنسية.<sup>25</sup>

إن ما كانت تهدف إليه المدارس الفرنسية-البربرية هو ما نراه حاصلًا إلى الآن، وهو ما نراه رأي العين في مواقف بعض مثقفي التبعية "المزوغيين" إلى يوم الناس هذا.

---

22- نفسه، ص 46.

23- بول مارتي، مغرب الغد، 1925، ذكره الجابري في كتابه المذكور سابقا.

24- نفسه.

25- محمد عابد الجابري، نفس المرجع السابق، ص 29.

## نضالات الحركة الوطنية ضد الفرنسية والاستعمار الفرنسي:

تَلَقَّى الشباب المغربي لفكر النهضة المنبعث من الشرق هو ما كانت تخشاه الحماية الفرنسية، وهو ما عمل أبو شعيب الدكالي على توجيه الشباب إليه. وبالتالي لم تكن "جامعة القرويين" لتبقى في عهد محمد بلعربي العلوي كما كانت قبل العشرينيات (من القرن 20). ولكنها على العكس من ذلك، أخذت مسارا آخر من التجديد والتقدمية والوطنية والنضال.

لقد كانت السلفية الوطنية هي أساس الحركة الوطنية في المغرب، سلفية أطلقها أبو شعيب الدكالي وطار بها محمد بلعربي العلوي كل مطار، ثم تلقاها عنه تلامذته وطلابه وعينهم على الميدان ومقاومة المستعمر على جميع المستويات: الثقافية والسياسية والاجتماعية والعسكرية...

فهل هذه "السلفية" مجرد حركة مقطوعة الأصل لا تعود إلى جذور تاريخية (اقتصادية واجتماعية وسياسية)؟

لا يقول بذلك عاقل يؤمن بأن لكل دعوة ما يسندها من الواقع المادي، ولا يقول به من يؤمن بأن صراع الإيديولوجيات والأفكار ما هو إلا انعكاس للتناقض بين طرفي صراع في المجتمع.

علل الفاسي نفسه، وباعتباره الشخصية الوطنية حيث تكثفت عناصر الفكر السلفي وتعززت، لم يكن ليسقط من السماء أو لينبعث من العدم. لقد كان -بتعبير عبد الصمد بلكبير- "يمثل الوعي البورجوازي في المغرب

في طور نشأته الجديدة ونموه في ظل الاستعمار، مقدا له تطوره  
المحتمل والمفترض".<sup>26</sup>

لا نريد أن نعمم هنا حالة علال الفاسي على كل رواد وشخصيات السلفية  
الوطنية، ولكن ما نود تأكيده هو أن هذه الحركة بنت واقعها وبنت  
التناقض الرئيس في المجتمع ولن تكون أبدا مقطوعة الصلة بالواقع  
المادي (الصراع بين الرأسمال الأجنبي من جهة والبورجوازية المغربية  
وبقية فئات وطبقات الشعب المغربي ومن جهة أخرى).

لقد اختمرت الحركة الوطنية في أحضان "السلفية الوطنية" وهي تنتظر  
لحظة الإعلان عن نفسها، فكان ذلك مع صدور الظهير البربري سنة 1930.  
وعوض أن ينجح المستعمر الفرنسي في تطبيق سياساته التعليمية بعد  
دعايته لها، وجد نفسه أمام هزيمتين: تراجع عن مدارسه الفرنسية-  
البربرية، وانطلاق حركة وطنية تطالبه بإصلاحات حقيقية (منها إصلاح  
التعليم).

لن تقف الهزيمة التي تلقاها المستعمر عند هذا الحد، ولكنها ستدفع في  
اتجاه مطالبة الحركة الوطنية بالاستقلال بدل الإصلاحات، وفي اتجاه  
مطالبتها بحقها في تأسيس مدارس حرة عصرية عمادها اللغة والثقافة  
الوطنيتين.<sup>27</sup>

---

26- عبد الصمد بلخير، دراسة بعنوان: "أربعة دروس عن الحركة السلفية"، مجلة الثقافة  
الجديدة، العدد 22، 1981، ص 116.

27- نفسه، ص 32-40.

ربما كانت هذه المدارس متخلفة من حيث تدريس العلوم البحتة والتقنية، ومن حيث استيعابها لكل ما يقتضيه التعليم العصري. ولكنها كانت تشكل النواة الأولى للمدرسة المغربية، مدرسة ستجد نفسها أمام تحديات كبيرة غداة الاستقلال.

الآن، يمكن أن نجمل الحصيلة اللغوية لنضالات الحركة الوطنية فيما يلي:

- دفع المستعمر إلى القيام بإصلاحات لغوية في مجال التعليم، وهي إصلاحات على هزالتها معبرة عن تنازل الإدارة الكولونيالية تنازلا سياسيا.
- تأسيس مدارس حرة يمولها الوطنيون، لغتها الأساسية هي العربية الفصحى.

\*\*\*\*\*

### - الازدواج اللغوي:

إن الازدواج اللغوي يعبر في الحقيقة عن سياسة فرنكفونية استمرت في المغرب غداة الاستقلال، وهي لا محالة تعرقل تقدم الدولة المغربية ما لم تمكّن للفرنسية. خياران كلاهما مر: ازدواج لغوي يعزز الفرقة والانقسام وانفصام الذات (وهذا يخدم فرنسا وأمريكا معا)، أو تمكين للفرنسية يمثل المصالح الاقتصادية والسياسية للرأسمال الفرنسي.

خياران كلاهما يخدمان فرنسا، وكلاهما يدافعان عن مصالح الرأسمال الفرنسي "من وراء حجاب".<sup>28</sup>

الفرنسية لغة حضارة، "الدارجة" هي اللغة الأم، الأمازيغية لغة شعب... "كل الطرق تؤدي إلى روما" كما يقال. وبالتالي كل الشبه المذكورة تؤدي إلى تراجع اللغة العربية الفصحى، وهي لن تتراجع إلى لصالح الفرنسية.

وبهذا، يمكننا القول: "الخطاب" الفرنسي، والخطاب "التلهيجي"، والخطاب "المزوغى"... كلها خطابات تخدم الفرنكفونية في نهاية المطاف.

دعونا الآن من هذا النقاش، لأننا سنعود إليه لاحقاً.

ودعونا نطرح السؤال التالي: كيف يؤدي ازدواج اللغوي إلى "تخلف اللغة العربية"؟

إن ازدواج اللغة يؤدي إلى:

- الإضرار بالوحدة الوطنية.

---

28- "من وراء حجاب": عنوان كتاب مترجم عن الفرنسية لفاطمة المرنيسي، عالمة الاجتماع المغربية المناضلة. لقد ذكرت هذه العالمة هنا بقصد، إذ أردت بذلك الرجوع إلى جيل من أساتذة الجامعات المغربية حيث كانت الجدية والوطنية والعمل والنضال. وذلك عكس ما يقع اليوم من ارتزاق = وتفكيك وكسل وتيه وعمالة وانعدام للمسؤولية... إن أزمة العربية من أزمة الجامعة، فمن سيناضل بترجمة الكتب العلمية إلى العربية؟ ومن سيؤلف في مختلف العلوم بالعربية؟ ومن سيضغط على الإدارة لتبني مشروع "تعريب التعليم العالي"؟ من سيقوم بهذه المهام النضالية غير الأساتذة الجامعيين وهم اليوم غائبون عن المعركة (إلا قلة قليلة رحمها الله)؟

- انفصام الشخصية عند الفرد الذي يتجزأ نشاطه بين لغتين.
  - الإضرار بالوحدة القومية العربية، إضعاف اللغة العربية لغة البناء والحضارة والدولة.
  - الوقوف في وجه تطوير اللغة العربية وتجويدها.
  - التأخر في إخراج اللغة العربية من تخلفها النسبي على المستوى المفاهيم التقنية والنظرية...
- هكذا يؤدي الازدواج اللغوي إلى تخلف اللغة العربية، حسب ما توصل إليه "عبد السلام الموزن"<sup>29</sup>.

### ثالثاً: مبدأ التعريب في مغرب الاستقلال.

الغموض والتراجع هو ما حكم ميدان "تعرب التعليم" في المغرب بعد الحصول على الاستقلال، ولا زال يحكمه إلى اليوم. فكلما تحقق إنجاز إلا وتم التراجع عنه بعد حين، وذلك من السنوات الأولى للاستقلال إلى اليوم. يقول محمد عابد الجابري: "وهنا أيضاً قد لا نكون في حاجة إلى استعراض مختلف القرارات، والبدايات والتراجعات، والمآزق، التي عرفها تعليمنا في ميدان التعريب، منذ الاستقلال إلى اليوم. فلقد كانت السنوات السبع عشرة الماضية عبارة عن متاهات لا مخرج لها، متاهات يؤدي بعضها إلى بعض، ولكنها تعود دائماً بالتائه فيها إلى نقطة انطلاقه. لقد تكررت المحاولات

---

29-عبد السلام الموزن، الدولة المغربية: قضايا نظرية، الملتقى، الطبعة الثانية، 2018. ص

المأساوية مرات عديدة، ولكن دون جدوى: ففي كل مرة يتسلق فيها التعريب بعض الدرجات في سلم تعليمنا إلا وكانت الخطوة التالية هي الرجوع إلى الوراء بأسرع ما يمكن".<sup>30</sup>

السؤال المطروح هو: ما سبب كل هذه التراجعات؟ وما سبب كل هذا الغموض؟

الجواب هو: أن القضية طبقية بدرجة أولى.

ولكن، كيف ذلك؟

إن الغموض ناتج عن "الطابع التوفيقي" الذي أنتج المبادئ الأربعة للتعليم، وإن التراجع ناتج عن تغير "العلاقات السائدة بين الفئات المتصارعة داخل النخبة المسيرة".<sup>31</sup>

ما المقصود بـ"الطابع التوفيقي" للمبادئ الأربعة للتعليم؟

وكيف تتغير "العلاقات السائدة بين الفئات المتصارعة داخل النخبة المسيرة"؟

إن الصراع الذي طغى على التفاوض الذي أنتج المبادئ الأربعة للتعليم، هو نفس الصراع الذي سيستمر على مستوى تسيير قطاع التعليم إلى اليوم.

---

30-محمد عابد الجابري، نفس المرجع السابق، ص 76-77.

31-نفسه، ص 71.

لقد كان الصراع في الأصل قائماً بين ما أسماه الجابري: "الحلف الوطني الذي يضم: البورجوازية المغربية الناشئة بقسميها التجاري والزراعي، والأرستقراطية التقليدية الدينية منها والعلمية والسياسية، وجماهير الشعب بمختلف فئاته"، وبين ما أسماه: "الزعامة الرسمية التقليدية"<sup>32</sup>.

فإذا كان مبدأ "التعريب" يمثل "الأرستقراطية التقليدية"، فإن مبدأ "المغربة" يمثل "البورجوازية المغربية الناشئة".

وإذا كان مبدأ "التعريب" يعطي العربية مكانتها التي تستحقها، فإن مبدأ "المغربة" يفتح المجال أمام النخب المغربية ذات التكوين الفرنكفوني لتعود من جديد في غياب كفاءات واطر ذات تكوين عربي.

هذا هو رأي محمد عابد الجابري، وقد لا يوافقه عليه كثيرون. ولكنه يتشبه به أيما تشبه، لأن التعريب في نظره شامل للمغربة والتوحيد معا.

فهل هناك مغربة تتحقق من غير تعريب؟

وهل هناك توحيد يتحقق من غير تعريب أيضاً؟

أكثر ما يتخوف منه الجابري، وذلك ما رآه حاصلًا، هو أن يكون التعريب موضوعاً لإرضاء خاطر فئة من الفئات، إلى أن يتم التراجع عنه اعتباراً لمبادئ أخرى تتسم بغموضها وقابليتها للتأويل.<sup>33</sup>

---

32- نفسه، ص 58.

33- نفسه، ص 68.

لقد كانت "المبادئ الأربعة" من جنس "الحلول الوسطى" (بتعبير الجابري)، وهي نفسها الحلول التي أنتجت استقلال المغرب. ذلك الاستقلال المنقوص الذي خلف عدة مشاكل في: التعليم، الإدارة، الاقتصاد، الوحدة الترابية...<sup>34</sup>

إن هذا الغموض الذي تتسم به "المبادئ الأربعة للتعليم" هو الذي أدى إلى مختلف التراجعات التي لحقتها، وتلك حالة شهدها مبدأ "التعريب" كما شهدتها المبادئ الأخرى. فبمجرد ما كانت تتغير "العلاقات السائدة بين الفئات المتصارعة داخل النخبة المسيرة" لصالح القوى الوطنية والأرستقراطية التقليدية، إلا وكان التعريب يأخذ منحاه الطبيعي في اتجاه تعريب التعليم. وبمجرد ما كانت موازين القوى تتغير لصالح الطبقات والفئات الأخرى (التي ترى مصلحتها من مصلحة الاستعمار الفرنسي، وما هي كذلك)، إلا وتم التراجع عن التعريب لصالح الفرنسية والمد الفرنكفوني.<sup>35</sup>

---

34-الخلاف بين الجابري والموذن في قضية "الاستقلال المنقوص".

35-ما الفرنكفونية؟

إن الفرنكفونية ثقافة ومصالح اقتصادية وسياسية، وهي قائمة على المبادئ التالية: =  
-- "خلق شروط التبعية المعنوية والثقافية عبر قناة اللغة وإشعاعها في التعليم والإدارة والمصالح العمومية" (العبارة لبنسالم حميش).

- ضرورة الصراع مع باقي اللغات المنافسة في إفريقيا (الإيطالية في السابق، والإنجليزية اليوم).

- تفوق اللغة الفرنسية على باقي لغات العالم من حيث التركيب والمميزات والحمولة الثقافية.

- الفرنسية مثقلة بالتنوير أكثر من أي لغة أخرى. والحقيقة أن التنوير الفرنسي كان طوباويا مقارنة مع التنوير الألماني، كما أن العلم والتكنولوجيا في الصين وكوريا وأمريكا وألمانيا واليابان قد تجاوزا نظيريهما في فرنسا.

إن السياسات الغامضة والتراجعية، وهي طبقية كما رأينا، قاصدة وليست متخبطة، خائنة وليست وطنية... وهي نفس السياسات التي قررت: التعريب العمودي بدل التعريب الأفقي، والتعريب الجزئي بدل التعريب الشامل.

إن اللوبي الفرنكفوني، والطبقات التي ترى مصالحها من مصالح الاستعمار الفرنسي (وما هي كذلك)... ليس من مصلحتها أن يشمل التعريب التعليم والإدارة والاقتصاد وكل مجالات الحياة العامة، وهي قبل كل ذلك تخشى أن يتم تعريب التعليم بكل مستوياته ولو لم تعرّب الإدارة والاقتصاد. ولذلك، فهي تتخذ التعريب العمودي حيلة وليس سياسة لغوية وطنية وتنموية صادقة. تتخذه تعريباً مؤقتاً سيتم التراجع عنه في أي وقت، وهو ما نراه حاصلًا بلا منازع. وعوض أن يتم تعريب التعليم أفقياً، تم الشروع في فرنسته أفقياً.

فما تكون "الأقسام الدولية" في الإعدادي والثانوي إن لم تكن تعبر عن الفرنسية "من وراء حجاب"؟

فهل نحن في حاجة إلى النزول عند رغبة أقلية قليلة مقابل التضحية بالتوحيد والتعريب؟ أم أن الفرنسية هي الهدف الأول والأخير؟

لا يمكن أن نتحدث عن أي تعريب ما لم يكن شاملاً، وقد أثبتت التجارب أن كل تعريب جزئي ما هو إلا حيلة مؤقتة لإخماد كل حراك وطني يطالب بالتعريب.

لقد وعى بهذه القضية وطنيون كثيرون، منهم: علال الفاسي، محمد عابد الجابري، عبد الله العروي.

- بالنسبة لعلال الفاسي:

لم يكن مطلبه تعريب التعليم فحسب، وإنما تعريب كل مناحي الحياة العامة والخاصة. ففي ندائه من أجل التعريب (1973)<sup>36</sup>، يطالب<sup>37</sup> الشعب المغربي بمواجهة الفرنسية في: المدرسة المغربية، الجامعة المغربية، الوظيفة العمومية، أجهزة الحكومة، المرافق العامة، مختلف الإدارات، الاقتصاد، الحياة الخاصة...

ولذلك وجدناه يقول في ندائه: "وإن كلمة الأمر اليوم، طبقا لإرادة الشعب ولما قرر حزب الاستقلال هي: لغتنا العربية لا نرضى بها بديلا في الإدارة، وفي المدرسة وفي الحياة العامة. ومعنى هذا أيها الشعب الكريم، أننا سنجعل في مقدمة نضالنا هذه السنة محو كل لغة أجنبية من إدارتنا ومن حياتنا العامة، وجعل العربية وحدها في هذين المرفقين، وتعريب التعليم

---

36-وهنا درس من دروس الوطنية الصادقة لعلال الفاسي، فقد أصدر النداء في 1973، وارتقى إلى الله شهيدا وهو يعرف بقضية "الصحراء المغربية" خارج أرض الوطن في 1974. كم نحن في حاجة إلى أن تملأ مقررات التاريخ بملاحم علال، ولكن هيهات هيهات. فعوض أن يقع ذلك، ما نرى إلا تهميشا لهذا الرجل بل تحرضا على شخصه ومساره ووطنيته الصادقة.

37-استعمال "المضارع" هنا مقصود، فعلال الفاسي طالبنا سنة 1973، ومطالبته لم ينفها التاريخ إلي اليوم، بل إن شروطها لا تزال قائمة.

بجميع مراحلها حتى لا يبقى للغات الأجنبية إلا ما هو معتاد في مدارس  
وجامعات الدنيا".<sup>38</sup>

لا تعريب ينجح في مجال التعليم دون تعريب التعليم العالي أيضا، ولا  
تعريب ينجح في التعليم ككل دون تعريب الإدارة والاقتصاد وباقي  
المجالات الأخرى.

نقول هذا حتى لا يتداعى الفارغون مرة أخرى، فيدلسوا على الناس بفشل  
التعريب وهو لم يحصل أصلا.

- بالنسبة لمحمد عابد الجابري:

"تعميم التعريب" بالنسبة للجابري هو "استكمال للتحريز"، "فإما أن نكون أو  
لا نكون". وقد حدد الجابري مجالات التعريب في أربع مجالات:

"التعليم بمختلف مراحلها وشعبه (وهنا يقترح الجابري التعريب الأفقي<sup>39</sup>)،  
الإدارة بمختلف مرافقها وفروعها، لغة الحديث والخطاب في المنزل والشارع  
والمدرسة، الفكر وقوالبه الثقافية وأطرها".<sup>40</sup>

---

38- علال الفاسي، نداء من أجل التعريب الصادر عام 1973.

39- المقصود بالتعريب الأفقي هو أن يتم تعريب مستوى من الابتدائي، وآخر من الإعدادي،  
وآخر من الثانوي، ثم آخر من التعليم العالي. وبعد ذلك، نتقد إلى المستوى الذي يليه من كل  
تعليم. وعكس هذا التعريب، نجد التعريب العمودي. وهنا يعرّب الابتدائي أولا، ثم الإعدادي  
والثانوي بعده، في حين يترك التعليم العالي إلى أجل غير مسمى. لم يعتمد التعريب  
الأفقي في المغرب، واعتمد بدله العمودي فباء بالفشل. وعوض أن يوجه التعريب من  
جديد، يخرج علينا كثيرون بمقولة لا أساس لها من الصحة: "لقد فشل تعريب التعليم".  
والحقيقة أنه لم يقع أصلا كما هو مطلوب.

إنها نفس المجالات التي خاطب فيها علل الفاسي الدولة والمجتمع بالتعريب.

العلاقة بين تعريب الإدارة وتعريب التعليم، في نظر الجابري، علاقة جدلية. وبالتالي فلا تعريب للإدارة دون تعريب التعليم، لأن الإدارة المعرّبة ستكون في حاجة إلى أطر ذات تكوين عربي. ولا تعريب للتعليم دون تعريب الإدارة، لأن خريجي التكوين العربي سيكونون في حاجة إلى عمل بعد تخرجهم.<sup>41</sup>

نستنتج أن التعريب الشامل -في نظر الجابري- يتم على خطوات:

- تعريب التعليم والإدارة.

- تعريب مختلف مرافق الحياة العامة (البيت، الشارع، القرية-المدينة، وسائل التواصل، مجالات الإعلام والتخاطب...).

- التدريس باللغة العربية من المراحل الأولى، وليس بالأمازيغية أو الدوارج.<sup>42</sup>

- تبسيط الفصحى حتى يستوعبها الناس ويقبلوا عليها.<sup>43</sup>

---

40-محمد عابد الجابري، نفس المرجع السابق، ص 142-143-144.

41-نفسه، ص 145.

42-يقع خلاف هنا بين كثير من المفكرين وذوي الاختصاص، وحتى بين أولئك الذي يؤمنون بضرورة التعريب وإمكانيته ونجاعته. ومنه الخلاف بين عبد الله العروي والمقرئ الإدريسي أبي زيد حول اعتماد قواعد النحو من عدمه منذ البداية. الأول يقول بأن التقييد للكلام يجعل من العسير تناوله وتقبله عند التلميذ في مراحل الأولى، أما الثاني فهو لا يفهم استقامة للكلام دون تقييده وضبط قواعد النحو.

43-محمد عابد الجابري، نفس المرجع السابق، ص 145-147.

التعريب -في نظر صاحب "نقد العقل العربي"- ثورة ثقافية شاملة، ثورة لبناء الشخصية العربية، وذلك عن طريق تعريب كل ما يمكن تعريبه، وليس فقط تعريب الحرف والكلمة والمصطلح.<sup>44</sup>

وفي بلدنا اليوم، لم يتم هذا التعريب الأخير، فما بالك بتعريب شامل (ثورة ثقافية) نادى بها الجابري.

وما أدرانا؟ فقد يتخلق الأول من الثاني.

وللإشارة فقط، فإن الذين يربطون إصلاح التعليم بفرنسته، لا يفهمون من إصلاحه شيئاً. وذلك لأن مشكلة المدرسة المغربية لا تكمن في عربيتها، بقدر ما تكمن في: ازدواجيتها اللغوية (اليوم ما هو أفضع: فوضى التعدد اللغوي)، ضعف مضمونها الوطني، ضعف العلاقة بين الذهن واليد في مقرراتها وبرامجها، ضعف علاقتها بباقي المجالات (الإعلام خصوصاً، يقول عبد الصمد بلكبير: "المدرسة تبني، والإعلام يهدم")<sup>45</sup>...

إن الإرادة السياسية الإصلاحية الصادقة هي ما تطلبه الأوضاع المزرية التي لا زال يتخبط فيها تعليمنا إلى اليوم، وهي ذات الإرادة المتخبطة في بلدنا بين فكي الاستعمار الجديد: أمريكا وفرنسا. فلا تتراجع أمريكا إلا لصالحها، ولا تهجم فرنسا إلا بتسوية مع أمريكا.

---

44-نفسه، ص 148.

45-نفسه، ص 153.

أمريكا يخدمها التعداد، وتستفيد من الفوضى الناتجة عنه. وفرنسا تخدمها الفرنكفونية، وتضمن بها مصالح الرأسمال الفرنسي. الرأسمال الأمريكي هيمني يصدر أزماته إلى دول العالم الثالث، فيستفيد منها بدل أن يجني الخسائر.

- بالنسبة لعبد الله العروبي:

يقول عبد الله العروبي: "لا تقولوا باطمئنان: إذا عربنا التعليم وشرعنا في تعريب الإدارة، فكل المشاكل ستحل".<sup>46</sup>

إنه قول صارم، فماذا يقصد العروبي به؟

الفكرة الأساسية التي ينطلق منها العروبي لاتخاذ موقفه هذا هي: "التعريب مهمة الطبقة الوسطى، وبتحقيقها لذلك سيتم تعريب المجتمع والدولة بشكل مباشر".

تأمل العروبي في المجتمع قاده إلى النتائج التالية:

- عدم وفاء الطبقات الشعبية للغتها (العربية الفصحى) يحكمه ارتباط مصالحتها بالطبقة الوسطى.

- لا معنى لتعريب التعليم دون تعريب الإدارة والاقتصاد من الناحية العملية.

---

46-عبد الله العروبي، عرض بعنوان: "الازدواجية ومشكل التبعية"، ندوة في 3 مارس 1972.

- استمرار التعدد اللغوي في غياب مبادرة الطبقة الوسطى بالتعريب (مبادرة وطنية)، مهدد بانهيار الدولة بعد تفكك المجتمع.

ما هو سبب فرنسة الطبقة الوسطى في المغرب؟ وما هي المشاكل التي نتجت عن هذه الفرنسة؟

إن الجواب على هذين السؤالين يفرض نفسه بقوة، وذلك حتى نستوعب الطريق الكفيل بإنجاح مهمة التعريب. تعريب الإدارة والاقتصاد، كما تعريب التعليم.

إنه وحده الجواب الذي سيحرض الشعب المغربي ليضغط على الطبقة الوسطى لتقوم بهذه المهمة، كما سيدفعه إلى الالتحام بقواها الحية التي تؤمن بمشروع التعريب (مشروع وطني).

جواب عبد الله العروي على السؤال الأول:

"ووصلنا إلى الحالة التي نعيشها اليوم، وهي فرنسة تامة لهذه الفئة من الطبقة الوسطى (مراعاة السياق التاريخي الذي قدم فيه العروي عرضه: 1972).

أسباب هذا الاستحواذ مختلفة، منها المهم كالمحافظة على الهياكل الاقتصادية الاستعمارية، ومنها ما هو أقل أهمية مثل انتشار الزواج المختلط. لكن النقطة الأساسية هي أن هذه الطبقة تظن أنها ما زالت قومية لأنها تحتفظ ببعض المظاهر التقليدية مثل الطبخ المغربي والأكل

بالأصابع ولباس الجلباب في أيام الأعياد، وتنسى أنها يوميا تعمل على نشر التفرنس".<sup>47</sup>

إن هذه الطبقة تنظر إلى مصلحتها على أنها من مصلحة الرأسمال المغربي التبعية، وبالتالي من مصلحة الرأسمال الفرنسي. فهي تبعية في نهاية المطاف.

إن المعركة الحقيقية هي أن تتحمل هذه الطبقة مسؤوليتها التاريخية لفرض الاستقلال والتضحية من أجله.

إن الوطنية ليست شكلية وسطحية (الأكل، الملابس، الموسيقى...)، بل هي أعمق من ذلك. إن الوطنية هي السبيل الوحيد لتحرير شعب بأكمله من التبعية، هي السبيل الوحيد لتحقيق مصلحة هذا الشعب في الاستقلال والتنمية.

كل طريق غير هذا الطريق ما هو إلا خدمة للرأسمال الفرنسي، وبالتالي خيانة للشعب والوطن.

قبل سنوات قلت شاعرا:

"فبالمزمار ومثله لا ترفع راية أو علم،

ولا بدف شاهد تخلد تواريخ الأمم".<sup>48</sup>

---

47- نفسه.

48- من قصيدة حرة كتبها بعنوان: "أبدع في العلم أبدع، ولا تكن بين الناس كالصنم".

وفي هذا دلالة على أن العناصر الشكلية والسطحية لا تحكم العمق بقدر ما يحكمها هو، وبالتالي فهي في المعارك لا تنفع بغير عمق.

جواب عبد الله العروي على السؤال الثاني:

"إن فرنسة الطبقة الوسطى عرقلت توحيد المغرب وعطلت حركة خلق مجتمع مغربي بالمعنى الحقيقي، بل زادت في تحجير اللغة الفصحى وإفقارها، كما زادت من قدرة اللهجات على تمييز المغاربة إلى فئات مختلفة على أساس غير الأساس الاقتصادي أو الوظيفي.

كل القرائن، إما في الماضي أو من الحاضر المشاهد، تبرهن على أن الدول التي تتلازم فيها الازدواجية اللغوية والازدواجية الاجتماعية إلا وهي دول مهددة بالانهيار يوميا لأنها لا تكون مجتمعات حقيقية"<sup>49</sup>.

هذا عن الازدواج اللغوي، فما بالك بالتعدد اللغوي.

هذه هي خطورة الاستعمار الجديد: تفكيك المجتمع، ومن ثم انهيار الدولة.

هذا ما يغفل عنه الكثير من المتكلمين والمتخبطين. إنهم ينسون أن معركة اليوم هي معركة سياسية من أجل: "الحفاظ على لغة الدولة، اللغة العربية كلغة وحدة وسيادة"، وليست معركة معرفية يصبح فيها النقاش بلا حدود.

نحن اليوم في الحاجة إلى اليقين للدفاع عن الوطن، وليس إلى الشك ليعيث فينا الاستعمار الجديد فسادا بلا حسيب ولا رقيب.

وإن المبادرة التي تم بعثها مؤخرا من الرباط (الجبهة الوطنية ضد الفرنكفونية)، وبمشاركة شخصيات وازنة تمثل الطبقة الوسطى المغربية، لتدل على وعي متقد بمعركتنا الوطنية.

إن هذه المبادرة لتشكل امتدادا لما وجهنا إليه عبد الله العروي، إنه دفاع عن الوطن "بعين وبصيرة".

### **3- تهافت شبه دعاة الفرنكفونية في المغرب:**

دعاة الفرنكفونية اليوم ست فئات:

- القائلون بتقدمة الفرنسية ورجعية العربية (الفرنسية لغة حضارة).
- القائلون بحق الأمازيغية (الأمازيغية لغة شعب).
- القائلون بصلاحيية الداريجة للتدريس (الدارجة لغة تدريس).
- القائلون بأهمية "القانون الإطار" (التخلف عن المعركة الوطنية).
- القائلون بهامشية المعركة (رواد الخطاب العولمي).
- القائلون بتغير الهوية (السيولة في مقاربة موضوع الهوية).
- القائلون بتهافت العمل السياسي والخطاب الإيديولوجي (عدم التمييز بين المعرفة والإيديولوجيا، سنؤجل مناقشة هذا الصنف إلى محور لاحق).

## أولاً: الفرنسية لغة حضارة.

- قالت نبيلة منيب: "الفرنسية لغة تحرر". أظنها تقول ذلك مستحضرة: فولتير، ومونتيسكيو، وروسو، وديكارت، وسارتر، وفوكو، وباشلار، ودولوز...

إن منيب تنظر هنا إلى التاريخ برغباتها، وبذلك تكون غير وفية (أو هي تجهل، وهذا هو غالب الظن) للمنهج المادي الجدلي.

إنها تمثل بحق "اليسار العولمي"، وإلا فكيف خولت لها نفسها أن تنحاز إلى الفكر الفرنسي الكلاسيكي دون نظيره الألماني مثلاً؟ وكيف انحازت لطوباوية روسو على حساب نقدية كانط وجدلية هيغل وتاريخية ماركس؟

إنها وافقت هواها، بعدما جهلت بمنهج اليسار في التحليل والتفسير.

يا ليتها أنتجت ممارسة واضحة وموقفاً سديداً، ولكنها على العكس من ذلك أخضعت دولة عريقة (المغرب) لهواها. فأصبح من حق كل أحد أن يتخذ المواقف السياسية على هواه، وأصبح من حق كل أحد أن يدعو إلى اللغة التي يفضلها.

فيدعو التجريبيون إلى الإنجليزية لغة بيكون، ويدعو الثوريون إلى الروسية لغة لينين، ويدعو دعاة "الثورة الثقافية" إلى الصينية لغة ماو تسي تونغ، ويدعو الجدليون إلى الألمانية لغة كانط وهيغل وماركس، ويدعو الماديون الميتافيزيقيون إلى الفرنسية لغة ديدرو، وتدعو حركات التحرر الوطنية إلى الفيتنامية لغة هوشي منه...

هل هذا ما تريده منيب؟

إنها تريد، إذن، زوبعة حقيقية، سيولة لا معنى فيها للوطن، ولا مجال فيها للثوابت.

بمقارنة نبيلة منيب بعبد السلام المودن<sup>50</sup> (حيث يتحرج الباحث من إقامة هذه المقارنة)، سيعلم المرء أن الفرق كبير بين يسار وطني وآخر عولمي نكتوي بناره اليوم.

ولا زال من اليسار من يقدر إلى اليوم، وهم وطنيون يتخذون المواقف السديدة في اللحظات الحاسمة. ومن هؤلاء: عبد الله العروي، عبد الصمد بلكبير، عبد الرحمان بنعمرو...

- موقف حسن أوريد غير واضح، هذا ما صرح لي به أحد المحليين السياسيين البارزين. وهذا واضح في مختلف مواقفه، فهل هو جزء من إدارة الدولة أم جزء من إدارة المجتمع؟ هل هو جزء منهما معا؟ وكيف؟ هل هو فرنكفوني أم وطني؟ هل يدافع عن العربية حقا؟ وبأي منطق.

---

50-عبد السلام المودن هو من أبناء اليسار المغربي الذين واجهوا العولمية والعدمية بشكل واضح، وذلك يتضح بجلاء في: موقفه من الصحراء (الإيمان بمغربيته، فكان لينينيا-تاريخيا- في وقت كان فيه أغلب رفاقه يتغنون بمواقف تروتسكيوكيفارا ولوكسمبورغ)، وفي موقفه من الفرنكفونية (الدفاع عن العربية كلغة دولة وكعنصر من عناصر الهوية الوطنية)، وفي موقفه من الدين (النظر إلى الدين كعنصر قد تتكثف فيه تاريخيا عناصر الهوية الوطنية وهو منها، إنصافه للرسول والشافعي -مؤسس علم أصول الفقه- في التاريخ... وذلك عندما كان الكثير من رفاقه يتغنون بسبب الدين وتبخيس أدواره التاريخية)...

لا مجال لتبرير أقوال أوريد فيما يخص "لغة تدريس العلوم" إلا بكونه فرنسي الهوية. كيف لا يكون كذلك وهو يدرّس هناك ويعيش من هناك ومن مداخيل مواقع ودور نشر معروفة ومكشوفة خطوطها التحريرية؟<sup>51</sup>  
فلنطلع قليلا على ما يقوله أوريد:

أولا: فشل تجربة تدريس العلوم بالعربية هو ما يؤكد ضرورة تدريسها باللغات الأجنبية (الفرنسية بشكل مضم).

هل فعلا دُرست العلوم بالعربية أستاذي حسن أوريد؟ وهل هناك تعريب لتدريسها دون تعريب التعليم العالي وباقي المجالات الأخرى، وأهمها: الاقتصاد والإدارة؟ أليس من العيب أن نحكم على تجربة لم تتحقق أصلا؟

---

51- البحث العلمي ولغة الحقيقة والممارسة: هناك من يعتقد أن البحث العلمي هو أن نتحدث في القضايا مجردة بعيدا عما يحكمها اجتماعيا ونفسيا، وهذا قول مرفوض. فكيف سنصدق حادثة من تنفق عليه الإمارات، وكيف سنصدق "غيرة بعضهم على تعليمنا" وهم لا يكونون ولا يملون من الترويج للفرنسية على حساب لغة السيادة (العربية) وفاء لمن ينفق عليهم ويرحمهم هناك في الجامعات الفرنسية (بهدف سيطرة الفرنسية) أو الأمريكية (بهدف التفكيك ونشر الفوضى اللغوية). والحقيقة أن ليس هناك علم يتطور بعيدا عن السياسة، وما الاستقلالية إلا وهم من لا يعتقد أنه يخدم خطأ سياسيا في كل حال من الأحوال. ألم تنظر إلى الفيلسوف المثالي المعتزل كيف يخدم البورجوازية التي تريد للعلم أن يفقد ثورته (الخلفية السياسية والاجتماعية) في سبيل تخليص كل مستضعف؟ ألم تنظر إلى الفيلسوف الذي ينزل إلى الأرض كيف يخدم بشكل واضح طبقتة التي ينتمي إليها (ديكارتر لما كانت البورجوازية في حاجة إلى تطوير قوى الإنتاج) أو يناصرها (ماركس الذي فسر التاريخ للعمال ونقد الاقتصاد السياسي لصالحهم وأوضح لهم الكيفية الواقعية التي يتخلصون عبرها من اغترابهم).

هل الأجدد بنا أن نناضل لتعريب كل ما يمكن تعريبه أم أن نتهياً لتصبح دولتنا ملحقة لفرنسا؟

عجبا لعقل كحسن أوريد لم يطرح هذه الأسئلة، ولم تحضره وهو يناقش "لغة التدريس".

ثانيا: وُدت الترجمة، وبالتالي فشل التعريب، فلنتجه نحو الفرنسية إذن.

إنه لقول مضحك، فهل فشل الترجمة يعني نهاية تاريخ النضال الوطني المغربي؟ وهل يعني الاستسلام لمن وأد الترجمة وعرقل مسارها؟ أين كان حسن أوريد لما كانت عملية وأد الترجمة قائمة على قدم وساق؟ ألم ينتبه آنذاك إلى أن القضية قضية إرادة سياسية وضغوط خارجية؟

ثالثا: يكرر حسن أوريد دائما: "أنا مع تدريس العلوم باللغة الأجنبية دون التضحية باللغة العربية".

عجبا للارتباك في المواقف يظهر لنا ثانية.

فبربكم، كيف سندرس العلوم باللغات الأجنبية دون التضحية باللغة العربية؟

ألستم أنتم من عاتبتم أهل العربية على عدم تطويرها؟ فكيف سيتم تطويرها وقد تم تهميشها علميا؟ وكيف سيتم إعدادها وقد تركت للشعر والرواية والعلوم الدينية (كما يلمح حسن أوريد)؟

رابعاً: يخلط حسن أوريد بين تعليم دولة ومجتمع ومؤهلات رجال عباقرة، فيأتينا بنماذج تعلمت عدة لغات (الجاحظ مثلاً)، وبأخرى درّست باللغة الفرنسية فتفوقت وتربت على النضال الوطني (عبد الرحيم بوعبيد، المهدي بن بركة).

ونحن نقول: الاستثناء استثناء من العاديات، ولذا لا يقاس عليه. ونقاش الدولة والمجتمع شيء، والخشوع للرغبات الذاتية شيء آخر.

- أما أحمد عصيد فهو أسوء من سابقه. يماثل بين اللاتينية والعربية الفصحى على سبيل الخطأ، ولا يعرف أن اللاتينية أصل للهجات المتفرعة عنها (التي أصبحت لغات فيما بعد). وليس هذا هو الحال بالنسبة للعربية الفصحى، فهذه الأخيرة فرع عن عامياتها (حسب عبد الصمد بلكبير). وبالتالي فما وقع للاتينية ليس هو ما سيقع للعربية الفصحى بتاتا، لأن الفصحى تعدّ أرقى نتاج لعامياتها كما تعد اللهجات الأوروبية أرقى نتاج للاتينية.

يعتقد المنصت إلى عصيد أنه ابن التحليل التاريخي (يقرأ تطور اللسان في ضوء التاريخ)، ولكننا لا نراه إلا مدلسا من الطراز الرفيع.

لا يقف عصيد عند هذا الحد، بل إنه يتجاوزه ليقول: "ليس هناك ما هو أجود مما يتم إنتاجه بالفرنسية اليوم، والفرنسية ليست لغة مستعمر، ولكنها لغة أساسية واللغة الأولى في البحث العلمي".

عبد الله العروى كتب بالفرنسية، وأخذ على نفسه أن ينقل للقارئ العربي كتاباته إلى العربية الفصحى بنفسه. كان بإمكانه أن يحث العرب (والمغاربة خاصة) على قراءة كتبه بالفرنسية، فليس هناك ما هو أرقى منها كما زعم عصيد. وكان بإمكانه أن يكلف مترجماً بترجمة كتبه، دون أن يتكبد بنفسه عناء ذلك.

إن العروى يعلم أن الشعوب تفهم بلغاتها (لغة الثقافة)، ويعلم أن كل عقل يفكر بخلفيته اللغوية. خاف أن يحرف أحد المترجمين أو القراء العرب معاني كتبه، فعمل على ترجمتها بنفسه.

العروى عبقري يكتب بلغتين (أو أكثر) ويفكر بهما، وهذا مما لا يتأتى لجميع الناس.

برع أدباء مغاربة كثيرون بالفرنسية، ولكنهم لم ينتجوا إلا ثقافة فرنكفونية. وبعبارة أخرى، فإنهم لم يستطيعوا أن يفكروا لنا ولقضايانا باللغة الفرنسية. إنهم مغاربة بالأصل، فرنكفونيون بالكتابة والتفكير.

هؤلاء هم من يقدم عصيد مقالاتهم وتحليلاتهم على أنها ذات جودة عالية.

ما أيسر الكلام، وما أشق أن يخرج من فم صاحبه بعد دراسة متأنية.

## ثانياً: الأمازيغية لغة شعب

لماذا لم يتبن الأمازيغ لغة الرومان وقد كانوا أشد غلظة؟

يجيب علال الفاسي (فيما معناه): "لأن لغتهم لم تكن من نفس جذر الأمازيغية، فشقت على ألسنتهم. وذلك على عكس العربية الفصحى التي تعود إلى نفس جذر الأمازيغية".<sup>52</sup>

إنها حقيقة تقرر قبل قرون، إذ تبنى المغاربة اللغة العربية لغة كتابة وثقافة (قرآن) ودولة اعتنى بها الأمازيغ أكثر من غيرهم وجعلوها لغة دولة أيام إمبراطوريتين: المرابطية والموحدية.

هذه الحقيقة هي ما يريد عصيد ومن نحا نحوه (منير كجي، أحمد الدغيرني، مليكة مزان...) أن يطمسه ويتجاهله.

سيتحقق له ذلك في ذهنه، ولكن الواقع الموضوعي لما يريده عصيد هو الفوضى والتجزئة والعبثية وتكريس المزيد من القابلية للاستعمار.

في هذا السياق يمكننا قراءة قول عصيد: "ليس في المغرب عروبة خالصة، واللغة العربية مكون من بين مكونات".

هكذا تصبح لغة الدولة مكونا فقط، وهكذا يعلن عصيد بصراحة معركته ضد العربية أساسا (وإلا لما واجه العربية في دفاعه عم الأمازيغية وفي تأييده لخيار الفرنسية أيضا)، وبالتالي ضد وحدة الدولة وتماسك المجتمع.

---

52-راجع "الحركات الاستقلالية في المغرب العربي"، علال الفاسي.

## ثالثاً: الدارجة لغة تدريس

خرج نور الدين عيوش، ويخرج كل مرة، يدعو إلى الدارجة كلغة تدريس ويستهدف العربية الفصحى بشكل واضح.

إن استهداف العربية لن يكون إلا لصالح الفرنسية، وإن الفرنسية كلغة تدريس في المغرب لا تعني إلا خدمة الرأسمال الفرنسي بشكل أو بآخر.

رغم "كبر فنه" وعلو مكانته، عبد الله العروي هو من واجه نور الدين عيوش على الهواء مباشرة (في برنامج "مباشرة معكم"). فأثبت للجميع أن: العربية الفصحى لغة دولة وأمة وثقافة وتواصل بين مختلف الشعوب العربية... كما ميز بين الفصحى والعاميات، وأشار إلى ما يمكن أن تؤدي إليه العاميات (كلغات تدريس) من مشاكل: الانقسام، التفكك، فصل المغرب عن محيطه العربي، استمرار التبعية...

لم يتأثر عيوش بقول العروي، وهو (عيوش) من لم يفد بشيء طيلة المناظرة. وعض أن يراجع أفكاره وقناعاته (مع إحسان الظن به)، خرج علينا بمشروع جديد (قاموس الداجة / أو كما لقبه عادل رفوش: "قاموس القادوس").

وهذا ما يثبت وفاء عيوش لخطه: خط الفرنكفونية.

## رابعاً: التخلف عن المعركة الوطنية (معركة تعريب التعليم)

أغلبية الأحزاب السياسية تردد على مسامعنا شبهة "أهمية القانون الإطار"، وما ذلك إلا تحريفاً للنقاش عن مساره الحقيقي.

قد يقول قائل: "وكيف تحكمون بالفشل على قانون لم يطبق بعد على أرض الواقع؟ ولماذا تتعاملون مع هذا القانون بالإفراط في إساءة النية؟" لا تهمنا هذه الأسئلة كثيراً، وذلك لأن تاريخ "إصلاح التعليم" في المغرب يشهد بالآتي:

- التردد والالتفاف والردة والتحايل، وبالتالي الفشل.

- القول باستقلالية السياسات التعليمية أمر يصعب تصديقه.

إن التعليم المغربي (كما هو كل تعليم) قضية طبقية ووطنية في نفس الوقت. وإن كل "إصلاح تعليمي" في المغرب (منذ الاستقلال إلى اليوم) لنراه يعكس:

- تناقض المصالح بين الطبقات المغربية من جهة.

- تناقض المصالح بين الطبقات المغربية والرأسمال الفرنسي من جهة أخرى.

الرأسمال الفرنسي هو أول من أسس تعليماً عصبياً على أساس طبقي في "مغرب الاستعمار"، ثم عمل على استمرار تدخله وغطه على "الحلف

الوطني" وعلى كل من أشرف على القطاع (التعليم) غداة الاستقلال لصالحه ولصالح لغته (الفرنسية).

أليس هذا وحده كافيا لنشك ونستمر في إساءة النية واتخاذ الحيطة والحذر؟

أليس هذا مما لا ينبغي تجاهله وقد أريد التدليس علينا بعبارة 'التداول اللغوي' التي ستؤوّل لا محالة لصالح الفرنسية لا لصالح غيرها؟

سنؤجل الحديث عن "تاريخ إصلاح التعليم بالمغرب" إلى محور لاحق، وسنكتفي هنا بالتأكيد على تخلف الأحزاب الوطنية عن معركتها الحقيقية: الدفاع عن الاستقلال والسيادة وعناصر الهوية الوطنية ومواجهة مخططات الاستعمار الجديد.

إن السؤال الذي يجب علينا طرحه هو كالتالي: ما سبب ما تعانيه أحزابنا الوطنية<sup>53</sup> اليوم من تراجع عن معاركها الحقيقية؟

لا يمكن أن تستمر إدارة الدولة، ولا مجال للحفاظ على الدولة، في غياب أحزاب سياسية وطنية ومناضلة.

---

53- في كل مرحلة من مراحل التاريخ السياسي للمغرب، يعبر الشعب عن همومه الطبقية والوطنية عبر حزب ما أو حركة ما. وهو ما يحصل اليوم مع "حزب العدالة والتنمية"، وكان سيظهر بشكل واضح لو أن "العدل والإحسان" راجعت مواقفها السياسية العولمية. إضعاف الحركة الإسلامية اليوم (وبالضبط "العدالة والتنمية وباقي هيئاته الشريكة")، هو في الأصل إضعاف لخيار الشعب. المطلوب هو: إما البحث عن القوة من الداخل مجددا، وإما البحث عن بديل آخر بإمكانه أن يعكس الهموم الطبقية والوطنية للشعب المغربي.

هل هذا يعني أن السلطة لا تتضايق من هذه الأحزاب؟

وهل يعني أن مصلحة السلطة هي من مصالح هذه الأحزاب؟

تعلم السلطة علم اليقين أن ضعف الأحزاب الوطنية وغيابها خطر على الدولة والإدارة معا، ولكنها تعلم أيضا أن تقدمها وتوسعها وانتشارها وتأثيرها يعصف بمصالح كثيرة.

تجد الأحزاب الوطنية نفسها تلقائيا في صراع مع السلطة. فيحتمد الصراع تارة، وتخف حدته تارة أخرى.

في ظل هذه الصراع، تضعف الأحزاب الوطنية ويتداعى عليها المحلي والأجنبي. من مصلحة السلطة (الجهاز السياسي للبورجوازية الكبيرة) الحد من تهديد الأحزاب الوطنية لها، ومن مصلحة "الاستعمار الجديد": الضغط بالصراع على إدارة الدولة أولا، ومواجهة امتداد الحركة الوطنية في المجتمع والدولة ثانيا.

المطلوب من زعماء الأحزاب الوطنية هو الوعي بكل ما ذكر أعلاه، وذلك ليتمكنوا من فهم "جدلية الطبقي والوطني" بدقة.

الصراع الطبقي قد يؤجل (كما حدث في مغرب ما قبل الاستقلال مباشرة)، وقد يخضع للتنازلات والتقلبات. إلا أن الصراع الوطني لا يمكن أن يكون كذلك، إذا لا مجال للحديث عن الطبقي في غياب الوطني. الاستقلال والسيادة والهوية هي شروط التنمية، وبالتالي فتحصيلها والدفاع عنها هو أول مطلوب.

هذا ما يفسر تحالف مختلف الطبقات الوطنية إذا اقتضى الحال لمواجهة الاستعمار، وهذا ما يفرض على الأحزاب الوطنية (وهي، في المغرب، تمثل الطبقة الوسطى / البورجوازية الصغيرة) تعبئة الطبقة الوسطى والشعب الكادح (العامل، الفلاح، الكادح...) للقيام بمهمتين:

- إما الضغط على البورجوازية الكبيرة (جهازها السياسي: السلطة المركزية) لتخرط في هذه المعركة وتنحاز لمصالح الشعب والوطن لا لمصالح الرأسمالية الأجنبية.

- وإما إسناد نضالها ودعمها شعبيا لتفاوض من موقع قوة، وهذا هو التوافق المطلوب اليوم (حدث مثل هذا التوافق في تاريخ المغرب: ثورة "الملك والشعب" باعتبارها تمثل توافقا بين محمد الخامس والحركة الوطنية، "المسيرة الخضراء" باعتبارها الممارسة العملية التي تلت التوافق بين الحسن الثاني والحركة الاتحادية، "خطاب 9 مارس ودستور وانتخابات 2011..." بعد التوافق الضمني بين محمد السادس والحركة الإسلامية (العدالة والتنمية وباقي الهيئات الشريكة) لإنقاذ المغرب من فتنة "الربيع"...) .

إن الفساد الذي يهدد الأحزاب الوطنية، اليوم، لتظهر بوادره كآلاتي:

- الافتقار إلى التنظير، وبالتالي ضعف الإيديولوجيا، وتخبط الممارسة العملية.

- انتشار الانتهازية وذوي "المصالح المنكرة" الذين يتنكرون لقضاياهم  
الطبقية والوطنية (يمكننا القول بأن: غياب الوعي الملموس بالقضايا  
وضعف الإيديولوجيات هما من بين أسباب الانتهازية).

- وبالتالي، فقدان النجاعة والفاعلية والنضالية... فتكثر التنازلات الطبقيّة<sup>54</sup>،  
وتُبَرَّرُ المساومة في القضايا الوطنية.

التناقض الرئيس، في مغرب اليوم، هو بين: الدولة المغربية (بمختلف  
طبقاتها) و"الاستعمار الجديد". ودور الأحزاب الوطنية هو التنبيه على  
خطورة الاستعمار، والتعبئة والضغط في اتجاه أن تخوض كل الطبقات  
والفئات المعركة ضده.

غياب النظرية والانتهازية وضعف النضالية... هي التجسيد الحقيقي لأزمة  
الأحزاب الوطنية في مغرب اليوم. وعوض أن تستمد الأحزاب الوطنية  
شرعيتها من التمسك بالقضايا الوطنية، نراها تضرب بها (ضرب العربية  
بالأحزاب الوطنية، وضرب هذه بها).

### خامسا: رواد الخطاب العولمي

هناك من يريد أن يستغفلنا بقوله: "إن معركة اللغة معركة هامشية، وما  
افتعلت إلا لتنسيكم وتلهيكم عن المواضيع والقضايا الحقيقية".

---

54- لا يكون التنازل مرفوضا دائما، ولكن يجب أن يكون مفسرا. المشكل الذي يقع أحيانا هو  
أن يمنح المناضل والمفكر السلطة حق تحديد سقف مطالبه ونضاله، وما ذلك بسليم دائما. لا  
بد أن تتم الممارسة العملية تحت سقف (الدولة)، ولكن المناضل وحده هو من يحدد هذا  
السقف بواسطة "التحليل الملموس للواقع الملموس" (لينين).

وهل هناك ما هو أهم من الاستعمار أيها القراء؟

محمد زيان المتحمس لقضايا: الشمال<sup>55</sup>، توفيق بوعشرين، بعض الاحتجاجات هنا وهناك، مقاطعة بعض الشركات... محمد زيان هذا هو نفسه من يقول بهامشية المعركة ضد الفرنكفونية (ضد "القانون الإطار"). والحقيقة أن كل من يقول بهامشية معركتنا هذه، فهو لا يعتبر "الاستعمار" في تحليله. وبذلك فهو ينتج تحليلات استعمارية، وبالتالي مواقف وممارسة استعمارية.

### سادسا: السيولة في مقاربة موضوع الهوية

أراد امحمد جبرون أن يفحمننا بقول لا معنى له في واقع المعارك إلا معنى الإضعاف وبث اليأس والبلبلية. لقد تداعى علينا قائلا: "ليست هناك هوية ثابتة، بل إن الهوية متغيرة عبر التاريخ. وليس بالضرورة أن تبقى العربية الفصحى عنصرا من عناصر الهوية الوطنية المغربية".

النقطة الأساسية التي يجهلها جبرون هي الآتية:

عناصر الهوية الوطنية متعددة، والواقع الموضوعي (التناقض الرئيس) هو الذي يحدد في أي عنصر من هذه العناصر تتكثف العناصر الأخرى.<sup>56</sup>

وهنا نوجه إلى السيد جبرون الأسئلة التالية:

---

55-"الريف" استعمال غير بريء.

56-عبد السلام المودن، نفس المرجع السابق.

- هل حصر كل عناصر الهوية الوطنية في واقع المغرب المعاصر؟

- وهل حدد التناقض الرئيس؟

- وهل بناء على هذا التناقض حدد العنصر الذي تتكشف فيه العناصر الأخرى للهوية الوطنية؟

ما لم يجب جبرون على هذه الأسئلة، سيبقى كل كلامه مجرد انطباعات استباقية. انطباعات توهم القارئ على أنها تنطلق من التاريخ، وهي في الحقيقة لا تنطلق إلا من التاريخ كما قرأه نيتشه.

يقول نيتشه: التاريخ هو دائما تاريخ ظالم ومظلوم، فلا داعي للاهتمام بالتفاصيل والمعطيات الواقعية لكل معركة.

وعلى نفس المنوال يقول جبرون: التاريخ هو دائما تاريخ تغير الهويات، فلا داعي للارتباط بهوية بعينها كما يحدث الآن.

وهل سننتظر من نيتشه أن يحدد واقعنا بدقة، بله أن ينخرط معنا في معاركنا بكل قوة؟

يصعب على من يعتقد بسيولة الهوية، وعلى من ينطلق من ذاته كلما أراد الحديث عن هوية شعب... يصعب على هذا الصنف من المثقفين أن يفهموا معنى: تكثف عناصر الهوية الوطنية في عنصر واحد أو أكثر وفق الواقع الموضوعي.

الحديث بغموض عن الهوية هو ما كان يجيده المفكر الشيعي اللبناني هاني فحص، وهذا ما نرى جبرون اليوم غارقا فيه.

قد يظهر جبرون للبعض واضحا، ولكننا لا نراه إلا ملمحا تلميح المثقف الذي يخاف من ظهور تحليل جديد يدحض تحليله.

كل مثقف من هذا النوع لا يثق في تحليلاته، لأنه لا ينطلق من الواقع الموضوعي. وحتى إن انطلق منه فهو لا يهتم بمنطقه (قواعده)، ويعتمد "التجريبية الفجة" في تفسيره.

#### **4- إصلاح التعليم بالمغرب: مجال من التردد والتجريب وتكريس الطبقية والاستعمار.**

إن مقولة "إصلاح التعليم" ليست وليدة اليوم فحسب، ولكنها قديمة قدم التردد والالتفاف والردة والتحايل وكل ما عاناه التعليم المغربي من فشل وإفشال.

ولنطلع القارئ على تهافت "دعوى الإصلاح" هذه، فلنلق نظرة على مختلف الإصلاحات المتعاقبة على قطاعنا التعليمي.

\*\*\*\*\*

لقد مر إصلاح التعليم عبر 14 مرحلة<sup>57</sup>:

- اللجنة الرسمية لإصلاح التعليم 1957.

---

57- كما نقل ذلك عبد الصمد بلكبير.

- اللجنة الملكية لإصلاح التعليم 1958-1959.
- المخطط الخماسي 1960-1964 (اللجنة المكلفة بإعداد مخطط التعليم).
- مناظرة المعمورة 1964.
- المخطط الثلاثي 1965-1967.
- مناظرة إفران الأولى (1970).
- مناظرة إفران الثانية (1980).
- المخطط الخماسي 1981-1985.
- مشروع الإصلاح 1985.
- الهيئة الخاصة لإصلاح التعليم.
- الخطاب الملكي 6 نونبر 1995، الذي دعا إلى تشكيل لجنة خاصة للعمل بميثاق.
- الميثاق الوطني للتربية والتكوين 1999-2010.
- البرنامج الاستعجالي 2000-2012.
- الرؤية الاستراتيجية 2015-2030.

\*\*\*\*\*

وقد أجمل الحسن اللحية هذا "الإصلاح" في ست مراحل (قبل الإعلان عن الرؤية الاستراتيجية 2015-2030)<sup>58</sup>:

- المرحلة الأولى (1956-1963):

عرفت هذه المرحلة أربع محاولات للإصلاح: لجنة للإصلاح (1975)، اللجنة الملكية لإصلاح التعليم (1958)، لجنة التربية والثقافة (1959)، المخطط الخماسي (1960-1964).

تميزت هذه المرحلة بالسجال بخصوص قضايا متعددة، وأهمها قضية التعريب. ففي نفس هذه المرحلة، اتفق على التعريب التدريجي، ثم تم التراجع عنه لصالح تدريس المواد العلمية بالفرنسية من جديد، ليتم إدخال كل ذلك في إطار "التعريب المعقلن" فيما بعد.

أما عن القرارات والإجراءات التي اتخذت بخصوص القضايا الأخرى، فحدث عن الارتجال والأخذ والرد ولا حرج. وفي الأخير، بقي التعليم المغرب عالقا في عدة مشاكل: الأطر، التجهيز واللوجستيك، الاندماج.

- المرحلة الثانية (1964-1972):

عرفت هذه المرحلة خطوتين إصلاحيتين: مناظرة المعمورة (1964)، المخطط الثلاثي (1965-1967).

---

58- الحسن اللحية، من مقال بعنوان: "تاريخ الإصلاحات التعليمية بالمغرب منذ 1956 إلى اليوم"، موقع الإعلام المدرسي والجامعي والمهني.

تميزت هذه المرحلة ببداية التعريب أفقياً. إلا أن هذا التعريب بقي محدوداً، وذلك نظراً لقلّة الأطر المعربة.

هذا، ولم تسلم هذه المرحلة من المشاكل التي عانى منها التعليم المغربي في المرحلة السابقة (المرحلة الأولى). وأهمها مشاكل: البنيات والأطر المغربية المعربة...

وتجاوزا لارتجال بارتجال (الارتجال تسببه المصالح الطبقية المتناقضة ورغبة الطبقة المسيطرة في الحفاظ على تحالفاتها، وبالتالي مصالحها)، ستسعى إدارة هذه المرحلة إلى وضع مخطط ثلاثي ينضاف إلى باقي المخططات والمحاولات الإصلاحية التي باءت بالفشل.

يسقط كثيرون في خطأ التداعي باللوم على "بنهيمّة" باعتباره المسؤول الأول والأخير عن سياسات المخطط الثلاثي، وما هو كذلك. بل هو مجرد منفذ يعكس مصالح دون أخرى، ويقترح لفائدة فئة دون فئات أخرى.

وبالتالي فما عارضته الأحزاب والنقابات والحركات الوطنية (حزب الاستقلال، حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، الاتحاد المغربي للشغل، الاتحاد الوطني لطلبة المغرب)<sup>59</sup>، هو من صميم مصالح البورجوازية الكبيرة ومن التحق بها وأيدها.

وما "بنهيمّة" إلا الموظف المطيع، فما أشبهه اليوم بالأمس.

---

59- انظر الآن إلى مآل الحركات الوطنية، وتدبر. الحزب والنقابة والحركة الطلابية... كل هذه الهيئات تعيش أحلك أيامها.

## - المرحلة الثالثة (1973-1983):

عرفت هذه المرحلة ثلاث خطوات إصلاحية: مخطط 1973-1977، المخطط الثلاثي (1978-1980)، مشروع الإصلاح (1980).

في المرحلة الثانية، بدأ التفكير في التكوين المهني. وفي هذه المرحلة الثالثة، سيتم الشروع في التمكين له على حساب مجالات أخرى. ومن هنا كان الاهتمام بالعلوم التطبيقية على حساب العلوم النظرية، والاهتمام بالتكوين المهني على حساب التعليم الجامعي (الاستقطاب الجامعي المحدود)، وخلق فرص الشغل لليد العاملة المهنية على حساب خريجي الكليات في مختلف المجالات العلمية...

لقد كانت هذه السياسات واضحة وضوح الشمس للناظرين، وذلك ما بوأها مكانة الحضور في كل الخطوات الإصلاحية التي عرفتھا المرحلة الثالثة.

ومما يجب تسجيله هو أنه بعدما تمت المصادقة على الشروع في عملية التعريب الأفقي في المرحلة الثانية، لم تهتم الإدارة بالتعريب كما هو مطلوب في المرحلة الثالثة. وإن هذا دل على شيء، فإنما يدل على الارتجال والأخذ والرد الذي تحكمه المصالح المتناقضة بين: البورجوازية الكبيرة والرأسمال الأجنبي من جهة، والطبقة الوسطى والعمال والفلاحين والكادحين من جهة أخرى.

- المرحلة الرابعة (1983-1994):

مراعاة الضغوط المالية في اتخاذ السياسات الإصلاحية التعليمية هو ما عارضه حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في المرحلة الثانية، وهو نفسه ما سيدفع الإدارة إلى الاقتراض من صندوق النقد الدولي في المرحلة الرابعة.

وهنا ستبدأ حكاية أخرى من الإملءات التي ستعصف بالنموذجيين الوطنيين: الاقتصادي والتعليمي معا.

ولم يكن صندوق النقد الدولي ليقرض المغرب درهما واحدا، لو لم يتخذ سياستين قاتلتين: أولا: رفع يد الدولة عن التعليم جزئيا (تفويت جزء من مهام التدبير والإشراف للقطاع الخاص).

ثانيا: الارتهان لمنطق السوق والحاجيات الاقتصادية في إطار "التقسيم الدولي للعمل" (التكوين التقني والمهني في خدمة السوق الدولية).

سيقول كثيرون: "لقد عرفت هذه المرحلة إصلاحات جديدة بالتقدير شملت: التعليم الابتدائي، والتعليم الإعدادي، والتعليم الثانوي. فما بال القوم ينكرون ولا ينصفون؟".

لم ينكر أحد تلك الترقيعات، وترقيعات أخرى. ولكن الكارثة هي الإذعان للرأسمال الأمريكي بعد الإذعان للرأسمال الفرنسي، الكارثة هي أن يعيش التعليم المغربي بين فكين استعماريين.

- المرحلة الخامسة (1994-1998):

عرفت هذه المرحلة اهتماما بالجانب الإداري الصرف، كما بقيت حبيسة التدبير اليومي. ولهذا تفسيره بعدما أصبحت السياسات التعليمية الكبرى رهينة مصالح الرأسمال الفرنسي وإملاءات صندوق النقد الدولي.

ومن طبيعة هذه المرحلة أن تظهر مشاكل: التعريب والتوحيد والمغربة من جديد، بل وأن تتعزز وتتأكد في ظل واقع فقدت فيه الإرادة إرادتها.

- المرحلة السادسة (1999-2013):

نفس الوضع استمر في المرحلة السادسة، حيث الاكتفاء بالارتجال ومراكمة القوانين والقرارات الهامشية والاهتمام بالقضايا الثانوية وتكثيف الجهود الإدارية على حساب المضمون...

ولا يظنن أحد أن ذلك حصل لصالح الشعب المغربي، وإنما لصالح من ينتهز فرصة الفراغ ليشرع ويعزز استعمارته الثقافي.

وبعد هذه المرحلة السادسة، هناك مرحلة أخرى سابعة لم يتطرق لها الحسن اللحية. لقد عرفت هذه المرحلة خطوة إصلاحية سميت: "الرؤية الاستراتيجية 2015-2030"، والملاحظ أنها لم تزد التعليم المغربي إلا تخبطا ومراكمة للانتكاسات والتراجعات.

\*\*\*\*\*

وهناك<sup>60</sup> من أرخ لما شهدته التعليم المغربي من تحولات على ثلاث مراحل:

- مرحلة التعليم الكولونيالي.

- مرحلة التعليم الهوياتي.

- مرحلة التعليم الانفتاحي.

لقد كان الإصلاح في المرحلة الأولى يخدم المستعمر مباشرة، وذلك عن طريق جهاز الدولة الكولونيالي.

أما المرحلة الثانية، فهي تلك التي أعقبت حصول المغرب على الاستقلال مباشرة. وهي التي سعى فيها المغاربة إلى القيام بمهام: التعريب ومغربة الأطر وإعادة الاعتبار للقيم الإسلامية والهوية المغربية...

أما المرحلة الثالثة، ففيها تم الانفتاح على المناهج التربوية والأساليب الإدارية الغربية.

يبقى هذا التقسيم نسبيا لا يصور الحقيقة كما هي، وذلك لأن:

- الاستعمار هو ما بقي مستمرا في شكله الجديد (اللوبي الفرنكفوني، إملءات صندوق النقد الدولي...).

- عدم وجود سياسات هوياتية واضحة وفشل الانسجام بين المكونات المساهمة في التشريع لملف التعليم (انقسام الصف المغربي إلى: من

---

60- عبد الله المصمودي، من مقال بعنوان: "مسار إصلاح التعليم بالمغرب من الحماية إلى اليوم".

يدافع عن تعريب التعليم ومن يعارضه، من يدافع عن المغرب ومن يعارضه...).

- لا يمكن أن نسمي الاستلاب انفتاحا، بل إن الاستلاب جزء من أزمئنا.

\*\*\*\*\*

باءت كل الإصلاحات بالفشل، واليوم يطون علينا بإصلاح جديد. "الإصلاح" كإيديولوجيا (كحيلة) تنطلي على من استغفل من الناس، ومن اعتقد منهم أن العطب لحقنا من انغلاقنا وقلّة معارفنا وتقنيئنا، وبالتالي من اللغة العربية كلغة تدريس.

كيف سنتفهم هذا الإصلاح وهو ملتبس منذ بدايته؟

كيف سنتفهمه وقد مكن للغة المستعمر وجلب علينا ثناء الإدارة الفرنسية منذ أول وهلة له؟

كيف سنتفهمه وقد جاء ملتبسا بعد الكثير من الأخذ والرد والتخبط (وكل ذلك مقصود لصالح الرأسمال الأجنبي والبورجوازية الكبيرة)؟

إن الملاحظ بعد عرضنا لمختلف المراحل التي مر منها إصلاح التعليم بالمغرب -منذ الاستقلال إلى اليوم- هو الآتي:

- استهداف اللغة العربية الفصحى كل مرة، ولو بعد إقرار تعريب التعليم. وإلا فكيف يتم التراجع عن التعريب بعد إقراره؟

- توجيه التعليم لصالح الرأسمال الأجنبي أساسا. وإلا لماذا تحرص إدارة الدولة على التكوين المهني والتعليم التقني على حساب المجالات العلمية الأخرى (تلك المجالات التي تعتبر الدولة في حاجة ماسة إليها بسبب تخلفها السياسي والتكنولوجي وتبعيتها للأجنبي)؟

- أزمة التعليم المغربي بين استعمارين: الاستعمار الفرنسي في تشكله الجديد بعد رفع جهاز الدولة الكولونيالي (اللوبي الفرنكفوني والضغط السياسية والاقتصادية)، والاستعمار الجديد الأمريكي عن طريق سياسة منح الديون وإملاءات صندوق النقد الدولي والاختراق الثقافي والضغط السياسي.

- التدخل الأجنبي، والانهازم الداخلي الذي تعاني منه النخبة المشرفة على قطاع التعليم مؤخرا، وتراجع الحركة الوطنية وامتدادها عن لعب أدوارهما الطلائعية، وانتشار الميوعة والسيولة واللامعنى والعدمية في صفوف أفراد الشعب المغربي بفعل "الاستشراق الجديد الأمريكي"... كلها عوامل أدت إلى: اكتفاء إدارة الدولة بتعديل الجهاز الإداري وإصدار القرارات الهامشية وفتح النقاشات الثانوية، واكتفاء المجتمع وإدارته بالمشاهدة والقبول بأمر الواقع كما هو (باستثناء بعض ردود الأفعال هنا وهناك).

الاستنتاج الأساسي الذي نخرج به من هذا المحور هو أن: اللغة العربية مستهدفة دائما، والفشل حليف كل خطوة إصلاحية في مجال التعليم دائما.

وبالتالي: لن يتم إصلاح التعليم بضرب اللغة العربية الفصحى كلغة تدريس، ولن تتجدد العربية وتتطور وتواكب عصرها ما لم تنهض بقطاع العليم قوى إصلاحية وطنية تؤدي هذه المهمة بإخلاص للوطن أولاً ثم للشعب ثانياً. والسلام.

## **5- قراءة في مواقف النخب الوطنية من فرنسة التعليم ("رفض القانون الإطار رقم 51.17"):**

- سياق تشكل الجبهة الراضة للفرنكفونية (وبالتالي الراضة للقانون الإطار)

هناك من يحاول، اليوم، استبدال الشعب المغربي وفك ارتباطه بقضايا الوطنية المصيرية. فكان ذلك بداية عن طريق تفكيك الثقافة الوطنية وتهميش النخبة الوطنية، ثم عن طريق بث الشبه والأغاليط التي لن يحاسبها أحد من عامة الناس.

لقد كشف مشروع "القانون الإطار" عن جزء كبير من هذه الأزمة التي تعيشها الساحة الثقافية المغربية، فظهر لنا بشكل جلي الوطني من غيره.

في المعارك التاريخية لا تهم النوايا كثيراً، وبالضبط إذا كان أصحابها فاقدين للوعي بقضاياهم الوطنية. هذا ما حصل للكثير من المثقفين المغاربة فيما يخص مشروع "القانون الإطار". فهم يحبون الوطن ومستعدون للدفاع عنه، ولكنهم لا يعرفون العلاقة بين مشاعرهم الوطنية

الصادقة ورفض مشروع "القانون الإطار". وبهذا يضيف هؤلاء صوتهم إلى دعاة الفرنسية، ويتغيبون عن المعركة كما تَغيب غيرهم.

إن الهجمات التي تتعرض لها اللغة العربية الفصحى ليست وليدة اليوم فحسب، ولكنها قديمة قدم استهداف وحدة الدولة المغربية وسيادتها واستقلالها وثرواتها.

السؤال المطروح الذي يفرض نفسه على كل باحث هو: لماذا استهدف الاستعمار الفرنسي العربية الفصحى منذ أول وهلة؟

ليس هناك سبب آخر غير: تفكيك الدولة المغربية العريقة إلى دويلات وقبائل، أو على الأقل إضعافها، وحرمانها من استقلالها، وضرب سيادتها، والإجهاز على القوى الوطنية الحية فيها... ومن ثم التمكين للرأسمال الفرنسي.

هناك من يعتقد أن القول بالتمكين للرأسمال الفرنسي خرافة ما بعدها خرافة.

كل من يعتقد بذلك فهو لا يعلم أن المغرب يفتح المجال في وجه أزيد من 1000 شركة فرنسية، وهي شركات:

- مَعفوية من الضرائب

- مستغلة لليد العاملة الرخيصة.

- مستفيدة من الأراضي والبنى التحتية مجاناً...

فما معنى كل هذه الامتيازات الاستعمارية (الاستعمار الجديد)؟

إنها لا تعني في الحقيقة إلا: ارتفاع فائض القيمة الذي تحصل عليه هذه الشركات مقارنة مع الشركات المستثمرة في فرنسا.

إن تصويت البرلمان المغربي بغرفتيه على "القانون الإطار" يحمل بين طياته العديد من الرسائل، ويؤكد أن جزءا كبيرا من سياسيينا ومثقفينا لا يفهمون كل ما ذُكر أعلاه. فكيف لمن لم يتهياً بالمعرفة والوعي بالقضايا الوطنية المصيرية أن يقرر في مصير شعب ومستقبل دولة؟

إننا لا نجني الخيبات داخل غرفتي البرلمان المغربي فحسب، ولكن خارجهما أيضا. فقد توزع دعاة فرنسة التعليم ومبرروها (من سياسيينا ومثقفينا) بين الفئات التالية<sup>61</sup>:

- القائلون بتقدمة الفرنسية ورجعية العربية (الفرنسية لغة علم وحضارة).
- القائلون بحق الأمازيغية (الأمازيغية لغة شعب).
- القائلون بصلاحيية الداريجة للتدريس (الدارجة لغة تدريس).
- القائلون بأهمية "القانون الإطار" (التخلف عن المعركة الوطنية).
- القائلون بهامشية المعركة (رواد الخطاب العولمي).
- القائلون بتغيير الهوية (السيولة في مقاربة موضوع الهوية).

---

61- لقد تم الرد على هذه الأقوال بتفصيل في محور سابق، فراجع وتأمل.

- القائلون بتهافت العمل السياسي والخطاب الإيديولوجي (عدم التمييز بين المعرفة والإيديولوجيا، سناقش هذا الصنف في هذا المحور بعدما أجلنا مناقشته في محور سابق).

- قراءة تحليلية في الشخصيات والمواقف والمواقع

### الشخصيات والمواقف:

كل هذا محبط ومخيّب للآمال، ولكن الحركة الوطنية لا زالت تسقينا بمائها وتمدنا برجالها. هؤلاء هم من أسسوا "الجبهة الوطنية لمواجهة الفرنكفونية" (تم التعبير عن هذا التأسيس ببلاغ: 7 غشت 2019)، وهؤلاء هم من صرحوا بمواقفهم الراضة للقانون الإطار قبل تأسيس هذه الجبهة. فهذا حماد القباچ يعتبر التصويت على القانون الإطار خيانة للحركة الوطنية وردة على مكتسباتها وخطها، وهو مهتم اهتماما كبيرا بإحياء تراث السلفية الوطنية وإعادة بعثه من جديد وفق شروطنا اليوم. فنحن نعيش في شروط "استعمار جديد"، ولذا فالوطنية هي الحل (لأنور عبد الملك كتاب بعنوان "الوطنية هي الحل").

وهذا عبد الصمد بلكبير يؤكد أن قضية اللغة قضية مصيرية لا تقبل المساومة، وهو ما يطلب النضال حتى تسود العربية الفصحى. أما المعركة فهي في نظره معركة سياسية لا ينبغي التساهل فيها أو إغفالها بنقاشات هامشية أو تديسية، فالمستهدف هو الفصحى (الكتابية)

وبالتالي الدولة. إنها مؤامرة أخرى من مؤامرات الاستعمار الجديد، حيث استهدف الإنسان وذاكرته ووعيه وثقافته الوطنية...

وهذا المقرر الإدريسي أبو زيد لا يرى سبيلا للاستقلال والتنمية غير سبيل التعريب، فالضعف الذي نعيشه اليوم في مختلف مناحي الحياة ناتج عن الازدواجية اللغوية بشكل كبير. وما "القانون الإطار" إلا حلقة من حلقات السيطرة على المغرب، ومن ثم حرمانه من عناصر هويته ومما يمكنه من نهوض الحضاري.

وهذا امحمد الخليفة يمثل امتدادا لمعركة علال الفاسي من أجل التعريب، الشيء الذي جعله يشبّه "القانون الإطار" بإعطاء السم في الدسم للمغاربة. فليست الغاية -في نظره- هي إصلاح التعليم، وإنما تحويل المغرب إلى حقل تجارب للفرنكفونية.

وهذا عبد الرحمان بنعمرو يؤكد أن اللغة العربية ليست مسألة تواصل فحسب، وإنما هي مسألة كيان وهوية. تلك هي الخلاصة التي توصل إليها كل الوطنيين وكافة التنظيمات الوطنية: جمعية العلماء المغاربة، الأحزاب الوطنية، الاتحاد الوطني لطلبة المغرب... وذلك هو سبب اتخاذ العربية الفصحى لغة دستورية (الفصل 5 من الدستور) يُعتَبَر المساس بها خرقا دستوريا.

وهذا عبد القادر الفاسي الفهري يرى أن فرض الفرنسية كلغة تدريس سيؤدي لا محالة إلى إضعاف اللغة العربية أكثر مما هي عليه، كما أنه

سيؤدي إلى "حرمان كل مواطن مغربي من أن تكون له لغة وطنية قوية ومربحة". أما "التناوب اللغوي" فهو -في نظر عبد القادر الفاسي الفهري- مصطلح غامض يعني الفرنسية وليس غيرها، وبالتالي فهو مصطلح غير مرغوب فيه لأنه يدل على المغاربة ويستهدف "اللغة الوطنية ولغة تدويل الدرس معا". (انظر مقالة لعبد القادر الفاسي الفهري، بعنوان "لغة تدريس المضامين في القانون الإطار: الظلم اللغوي، تبيد الرأسمال اللغوي الوطني، وحرمان المغاربة من تدويل تعليمهم).

هذه مواقف بعض الشخصيات فقط، وإلا فمواقف الذين رفضوا "القانون الإطار" كثيرة ومختلفة المداخل وزوايا النظر.

### الشخصيات والمواقع:

إن الشخصيات المؤسسة لـ"الجبهة الوطنية لمواجهة الفرنكفونية" (23) شخصية تقريبا) لتمثل فئة واسعة من الشعب المغربي، وهي الفئة الأغلب بدون منازع. ومن دونها، لم تبق إلا أقليات عولمية ومرتمية في أحضان الاستعمار الجديد بلا شك (بوعي منها أو بدون وعي، لا يهم).

"مواجهة الفرنكفونية" معركة، وهي بالتالي في حاجة إلى إجماع وطني على مواجهة الاستعمار في تشكله الجديد. وهذا ما نزن "الجبهة" قد راعته لما وقعت على بلاغها الأول أغلب التيارات الوطنية ممثلة بشخصيات وازنة يكاد يقع عليها الإجماع، إلا من طرف من قصر وعيه وضعفت همته وعقيدته الوطنية.

يمكن حصر التيارات الممثلة في بلاغ "الجبهة" في سبعة تيارات:

أولاً، "حزب الاستقلال" ممثلاً بأحد أبرز أعلام قيادته التاريخية: امحمد الخليفة. وفي هذا دلالة على أن معركة الاستقلال لم تنته بعد، فيصل بالرمز ما لا يصل بغيره.

ثانياً، "اليسار الوطني (وليس العولمي)" ممثلاً برمز من رموزه: عبد الصمد بلكبير وعبد الرحمان بنعمرو. وفي هذا رسالة إلى كل من يعتقد بأن لا يسار إلى اليسار العولمي الأمريكي (يسار الحريات الفردية والنموذج التنموي الأمريكي)، فيعيد اليسار ارتباطه برموزه الوطنية التاريخية التي قضت نحبها (المهدي بنبركة، عبد الله إبراهيم، عبد الرحيم بوعبيد، عمر بنجلون، عبد السلام المودن...) عوض الارتباط بأفواه لا عقل ولا قلب لها.

ثالثاً، "العدل والإحسان" ممثلة بكل من: محمد حمداوي، حسناء قطني، محمد بنمسعود. وبهذا تكون هذه الجماعة قد قررت الاقتراب من هذه المعركة الوطنية بالرغم من سقطات وهفوات لها هنا وهناك، وهي تيار واسع (أكبر حركة إسلامية في المغرب، وقيل في المغرب العربي) له مكانته ووزنه كما هو معلوم.

رابعاً، "حركة التوحيد والإصلاح" و"العدالة والتنمية" ممثلين بأبرز قياداتهما: عبد الإله بنكيران (زعيم "العدالة والتنمية")، عبد الرحيم الشبخي (رئيس الحركة)، المقرئ الإدريسي أبو زيد (الشخصية الإيديولوجية والفكرية الأولى في الحزب والحركة)، أحمد الريسوني (صاحب الشرعية العلمية وطنيا

ودوليا). وهذه تمثيلية واضحة لتيار رفضت قواعده "مشروع القانون الإطار"، كما اعتبرت التطبيع مع الفرنكفونية ابتعادا عن هوية ومرجعية "الحزب والحركة".

**خامسا،** "السلفية الوطنية" ممثلة بامتدادها حماد القباح. وهو الشيخ المرابط العامل والمناضل الوطني، إذ يؤثر في فئة واسعة من الشباب السلفي (بالاعتدال ضد التطرف والإرهاب، والوطنية ضد التبعية والاستعمار) وينسق مع مكونات سلفية أخرى (مراكز وجرائد ومؤسسات خيرية وفعاليات سلفية وطنية هنا وهناك...). هذا، ويمكن اعتبار الشيخ القائم الأبرز - ما لم نقل الوحيد- بمشروع "السلفية الوطنية" تأليفا وتتبعاً وتاريخاً وتأسيساً واهتماماً يوميا.

**سادسا،** "أكاديميون مناضلون" ممثلون بكل من: عبد العلي الوغيري، عبد القادر الفاسي الفهري، سمير بودينار، أحمد عدنان التازي، أحمد عزيز بوصفيحة، جمال الدين البورقادي، محمد بلبشير الحسني... وهؤلاء جميعا يذكروننا بذلك الجيل من الأكاديميين الذين كانوا يناضلون انطلاقا من تخصصاتهم وأدوارهم العلمية، أو على الأقل يوازنون بين انشغالهم بالمحاضرات والأبحاث والتأطير العلمي وبين الارتباط بالقضايا الوطنية والانخراط في معارك الاستقلال والمطالبة بالعدالة الاجتماعية والتنمية.

**سابعا،** "مناضلون من أجل اللغة العربية" ممثلين بكل من: فؤاد بوعلي (رئيس الائتلاف الوطني من أجل اللغة العربية)، عبد القادر العلمي (عضو التنسيق الوطنية للغة العربية)، علي الأربعين (الكاتب العام للإئتلاف

الوطني من أجل اللغة العربية). وتحت "الاتلاف الوطني من أجل اللغة العربية" جمعيات عديدة وفعاليات وشخصيات جعلت "الدفاع عن اللغة العربية" قضيتها الأساسية، وهذا كاف لتقوية "الجبهة الوطنية" بمن تخصص في النضال اللغوي الوطني أكثر من غيره.

بكل هذا تكون "الجبهة الوطنية لمواجهة الفرنكفونية" قد نالت شرعيات متعددة: الشرعية الوطنية، والشرعية السياسية، والشرعية الفقهية، والشرعية التقدمية، والشرعية الإسلامية (الإسلام الشعبي)، والشرعية العلمية والمعرفية... نالت كل ذلك بلا منازع، ومهما حاول المشوشون التشويش عليها فهي قوية بمن فيها والفئات الشعبية التي تمثلها.

## **ملحوظة: في القائلين بتهافت العمل السياسي والخطاب الإيديولوجي**

هناك من لا يميز بين المعرفة والإيديولوجيا، فيبْحَس كل عمل سياسي أو خطاب إيديولوجي. ومن هؤلاء عبد الله حمودي الذي أخذ ينظر إلى الالتحاق ب"الجبهة الوطنية لمواجهة الفرنكفونية" كعيب أو كسبة تلاحق صاحبها، كما أخذ يصف كل خطاب إيديولوجي بالنقص والتهافت.

إن عبد الله حمودي مثالي لم يخرج من مثاليته بعد، وذلك لأنه يعتقد أن المعارك لا تنجح إلا إذا قامت بين النظريات والتفاسير العلمية. وهو بهذا يتصور المجتمع مختبرا آخر، ولا يميز بين الزعماء والعامّة ولا بين المفكرين ومن دونهم.

إن عبد الله حمودي أبعد من أن يفهم مقولة طه حسين: "ليس للعلم حدود، ولكن للعلماء حدود".

فالسياسة هي التي تحد المعرفة، و"الإمكان التاريخي" هو الذي يجعلنا في حاجة إلى الإيديولوجيا ودخول "عالم السياسة". و"معركة التعريب" في حاجة إلى العلم (النظرية) والإيديولوجيا (الطوبى) معا، وإلا لتدافع العلماء بعيدا عن شعوبهم ولهرولت الشعوب بعيدا عن علمائها ومفكرها وزعمائها.

ولأن حمودي لا يقبل التاريخية ويكتفي بما تصفه الأنثروبولوجيا، فهو دائما ما يسقط في الإيديولوجيا التي يسبها ويمتعص منها.

أليس الاكتفاء بالوصف الظاهري قراءة "للجزء في غياب الكل"؟ أليس ذلك من الإيديولوجيا التي يكتشفها "علم العلوم" كما اكتشفته الماركسية؟

إن الاكتفاء بالوصف الظاهري وإهمال التاريخ، هو ما جعل حمودي يعتبر الفرنكفونية والاستعمار الجديد والفرنسة مقولات إيديولوجية.

إنه لم يدرس المغرب (الجزء) في إطار كله (ومنه المغرب في علاقته باستعمارين في تشكلهما الجديد: الفرنسي والأمريكي، والمغرب كدولة تأسست وتطورت تاركة وراءها العشائر والقبائل والزوايا...)، ولذلك نظر إلى الإيديولوجيات الوطنية بنظرة التبخيس والنقد المعرفي وتحمس للمعارك التفكيكية (المعارك التي يشرف عليها "الاستشراق الجديد" و"مجمع

الصناعة العسكرية في أمريكا") واعتزل تلك الوطنية (ومنها معارك: اللغة، الدين، الأسرة، الأقاليم...).

- قراءة في مضامين البلاغ الأول الصادر عن "الجبهة الوطنية لمواجهة الفرنكفونية"

عكس القراءة التي يقدمها قاصرو النظر، نظرت "الجبهة الوطنية" إلى معركتها بمثابة استمرار للمعارك التي خاضها رجالات الحركة الوطنية ضد الاستعمار قديما (محمد بن عبد الكريم الخطابي، احريرو، محمد بلعربي العلوي، علال الفاسي، محمد المختار السوسي...) وجديدا (عبد الله إبراهيم، المهدي بن بركة، عبد الرحيم بوعبيد، عبد السلام الموزن، عبد الصمد بلكبير...).

لقد كتبت مضامين "البلاغ الأول للجبهة" بقلم من يخاف على: السيادة والهوية وثوابت الأمة المغربية ووحدتها ووجودها عبر التاريخ...

وذلك لأن في ضرب اللغة العربية ضربا للقرآن الكريم، وبالتالي ضربا لما يلي:

- ما يستمد منه الحكم شرعيته في المغرب لقرون، والشرعية أساس السيادة.

- العنصر الأساسي الذي تتكثف فيه عناصر الهوية الوطنية في المعركة الحالية، ألا وهو الدين.

- ما تتوحد عليه الأمة المغربية من ثوابت...

وبالإضافة إلى هذا الذي قيل، فإن مناصلي الجبهة لم يخرجوا عن إطار القانون الأسمى في الدولة (الدستور). ولكنهم بقوا متشبثين بدستورية مطالبهم القائل بالإبقاء على مكانة اللغة العربية باعتباره اللغة الرسمية والسيادية للدولة، كما بقوا متشبثين بعدم دستورية "تدريس المواد العلمية وغيرها باللغة الفرنسية"، وبالتالي عدم دستورية كل مادة تقرر بذلك من مواد القانون الإطار.

القضية إذن وطنية، فلا مجال لأن يخضعها أحد "للمزايدات السياسية والمغالطات الإيديولوجية". فالكثير مما يتلفظ به بعض المسؤولين وبعض المثقفين ما هو إلا إيديولوجيات تقدم في قالب علمي أو واقعي، ومن ذلك: القول بتخلف العربية والعجز عن تطويرها، القول بأن التقدم العلمي والتكنولوجي رهين بفرنسة التدريس، القول بتهافت كل معركة وطنية ضد الفرنسية علميا وتاريخيا...

هذا، وقد وردت في "البلاغ" عدة مطالب وتحذيرات ورسائل. ومما يجدر الانتباه إليه في ذلك ما يلي:

- "رفض مواد القانون الإطار التي فرضت اللغات الأجنبية لتدريس المواد العلمية وغيرها في كل أسلاك التعليم". وفي هذا اقتصار على رفض مواد دون غيرها، وذلك حتى لا يقول قائل بأن الجبهة تعرقل مساعي إصلاح التعليم في المغرب.

- التنبيه على "الإجراءات الاستباقية" التي تشرف عليها وزارة التربية الوطنية بهدف تسهيل وتسريع عملية الفرنسة، وفي هذا إشارة إلى أن ما يحاك في الخفاء غير ما يروج له في العلن. في العلن: الضغط بضرورة إصلاح التعليم، وفي الخفاء لا بد أن نبدأ بالفرنسة قبل غيرها. يحدث كل ذلك بشكل واضح، وكأن "الفرنسة" هي "الإصلاح" الوحيد الذي يتضمنه القانون الإطار.

- فضح سياسة ستر الجهل التي يشرف عليها من صاغ القانون الإطار ومن يروج له ومن صوت له... وهي السياسة القاضية بادعاء الاختصاص والمعرفة لمن نفخ في "فرنسة التعليم" روحا جديدة، وكأن ليس في المغرب من يناضل من منطلقات علمية وأكاديمية وطنية. لا بد إذن من النضال الأكاديمي العلمي والتخصصي، وهو وحده القادر على نسف كافة الإيديولوجيات التدبسية المنتشرة وإظهار زيفها.

- "العزم على خوض كل الأشكال النضالية المشروعة" لإيقاف مخطط الفرنكفونية في المغرب، وعبر بوابة قطاع التعليم خاصة. إن هذا الانتقال من النخبوية إلى مخاطبة الجماهير ليعيدنا إلى فترة سابقة كانت فيها الحركة الوطنية مطالبة بمخاطبة الشعب المغربي وتنظيمه وتحريضه لمواجهة المستعمر، فما أشبه اليوم بالأمس. إلا أن الاستعمار الجديد لا يشبه الاستعمار القديم إلا في جوهره (النهب، الربح، تحصيل فائض القيمة...)، دون أن يشبهه في الأساليب والوسائل التقليدية (الاستعمار بالجيوش).

## - مسؤوليات الجبهة وواجب الشعب المغربي

المسؤولية، اليوم، هي مسؤولية كل الفاعلين وكل المثقفين والسياسيين الوطنيين وكافة الأبناء البررة لهذا الوطن، رجالا ونساء، شبابا وشيوخا... المسؤولية اليوم ملقاة على عاتق الجميع حتى:

- يتحقق الالتحام بمطالب الجبهة الوطنية.

- يتم التعريف برموزها.

- يتم تنظيم ندوات وموائد لمناقشة مواقف الأكاديميين والمفكرين والسياسيين والعلماء والفقهاء... المنتمين لهذه الجبهة.

- يتم دعم كل خطوة نضالية تقترحها الجبهة ميدانيا وفعليا...

إنها معركة تاريخية يجب أن تقودها "الجبهة"، وستزداد قوتها لو حصل "التوافق المطلوب تاريخيا" بين إدارة المجتمع ("الجبهة" في معركة التعريب) وإدارة الدولة للوقوف في وجه كل ضغط أو ابتزاز أجنبي (الابتزاز بقضية الصحراء المغربية على وجه التحديد).

إنها معركة لا ينبغي أن تتخلف عنها "الجبهة" بعد أن أعلنت عنها، فلا مجال للتراجع في المعارك المصيرية بعد انطلاقها.

التراجع بعد الانطلاق يثير الشكوك ويقوي المخاوف، وكما خرجت "الجبهة" للناس بالانطلاق فلتخرج لهم بالتراجع.

تزداد المعطيات، فيتغير المواقف.

إلا أن مواجهة الشعب المغربي بكل جديد أمر لازم، وذلك حتى لا يصحب الأمر الجلال ضربا من العبث والعواطف الجياشة التي سرعان ما تنطفئ.

## 6- خلاصة الدراسة:

يمكننا أن نلخص ما توصلنا إليه في هذه الدراسة فيما يلي:

- السياسات التعليمية تعكس: إما سيطرة طبقة، وإما هيمنة أجنبية، وإما توافقا بين طرفي تناقض في المجتمع... إلخ. وهذا مما استنتجناه بعد استقراء التاريخ، حيث بدأت السيطرة مع "المجتمع العبودي" وتطورت إلى أن تشكل "المجتمع الرأسمالي".

ونفس الشيء يصدق على التعليم المغربي بعد تعرضه لهيمنة الرأسمالية الاحتكارية عن طريق جهاز الدولة الكولونيالي، واليوم أيضا بخضوعه لسيطرة طبقية داخلية في إطار هيمنة أجنبية (فرنسية وأمريكية).

- لغة التدريس خاضعة لكل ذلك أيضا، وذلك لأنها عنصر من العناصر التي تهتم بها السياسات التعليمية. وقد رأينا في الدراسة كيف كان يراد لفرنسة التعليم أن تخدم الرأسمال الفرنسي، وكيف كان يراد لمواجهة العربية أن تضعف الحركة الوطنية (البورجوازية الوطنية، العمال، الفلاحون، الكداح...).

- تهافت شبه دعاة الفرنكفونية، إذ بينا عجزهم عن فهم ما سبق ذكره (الطبقي في إطار الوطني، تحديد التناقض الرئيس بالتحليل الملموس للواقع الملموس). وتوصلنا إلى أن مثاليتهم -التي تبرر كثيرا بالمصالح

العينية-هي سبب اصطفا فهم ضد طرف التناقض الوطني ومع الطرف الآخر الذي لن يكون إلى الاستعمار الجديد (فرنسيا أو أمريكا).

- إصلاح التعليم لن يتأتى بفرنسته، وإنما بحصول التوافق بين البورجوازية الكبيرة من جهة والطبقة الوسطى (ما لم تنتكس وتعلن تبعيتها للبورجوازية الكبيرة، وبالتالي للرأسمال الأجنبي) وما دونها من الطبقات من جهة أخرى من جهة ثانية. وذلك في سبيل تحقيق سيادة واستقلال كاملين غير منقوصين، ثم في سبيل تنمية وإصلاحات تتم في إطارهما.

- "الجبهة الوطنية لمواجهة الفرنكفونية" امتداد واستمرار لمعارك وطنية/طبقية سابقة. إنها تدافع عن الوطن والمستضعف داخله في آن واحد، أي أنها تصبو إلى تحقيق الاستقلال وتمهد لتنمية وطنية وليست أجنبية استعمارية يراد من خلالها الهدم والتفكيك و"رفس السلام الاقتصادية" (عبارة لمصطفى فضل النقيب) دون أي شيء آخر.

ولأنها كذلك، فهي مسؤولة لا تتراجع عن خطها إلا بتبرير، وهي في حاجة إلى إسناد شعبي لا يتحقق أي مكتسب بدونه.

إحياء  
للتنمية الأخلاقية



Ihyae  
Ethics Development



/IhyaeForum

جميع الحقوق محفوظة © 2019